الباب الرابع

(أ) من آيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة

١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

[الزمر: ٦٢]

beikanal.com

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

[الزمر: ٦٢]

هذه الآية الكريمة جاءت فى مطلع الخمس الأخير من سورة الزمر، وهى سورة مكية، وآياتها خمس وسبعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم للإشارة فيها إلى سَوْق المجرمين من الكفار والمشركين فى يوم القيامة إلى جهنم زمرًا، وإلى سَوْق المتقين من المؤمنين الموحدين الصالحين إلى الجنة زمرًا.

عرض موجز لسورة الزمر

يدور المحور الرئيسى للسورة حول قضية العقيدة وجاءت بها بعض اللمحات عن طبيعة النفس الإنسانية، وعن مصائر المؤمنين والكافرين فى الآخرة، وعما أصاب المكذبين من الأمم السابقة. وضربت السورة الكريمة عددًا من الأمثال واحتوت على العديد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق وفى إثبات قدرته ـ تعالى ـ على البعث. ويمكن تلخيص أهم القضايا التى جاءت بها سورة الزمر فى النقاط التالية:

أولاً: من ركائز العقيدة فى سورة الزمر

(١) إن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالحق ـ قرآنًا عربيًا غير ذى عوج ـ يطالبه ﷺ كما يطالب الناس جميعًا بالإيمان به، وبعبادة الله ـ تعالى ـ وحده بإخلاص وتجرد تامين، بغير شريك، ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين والله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ولذلك فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقبل من عباده إلا التوحيد الخالص لذاته العلية.

(٢) إن الذين اتخذوا أولياء يعبدونهم من دون الله، بدعوى أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، هم كاذبون فى ادعائهم، ومفترون على الله، وسوف يحكم الله - تعالى - فيهم يوم القيامة، وهو - سبحانه - لا يهدى من هو كاذب كفار؛ لأنه لا يوجد من هو أظلم لنفسه ممن كذب على الله، وكذَّب بالحق إذ جاءه.

(٣) على الذين ادعوا لله - تعالى - ولداً بغير علم ولا هدى ولا سلطان مبين أن يعلموا أن الله غنى عن الصاحبة والولد، وأنه لو أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء؛ لأنه - سبحانه - هو الله الواحد القهار.

(٤) إن الله - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر، ولكنهم إن كفروا فالله غنى عنهم، وإن آمنوا وشكروا فالله يرضى عن ذلك منهم، و﴿**لا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ والخلق جميعهم راجعون إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون، وهو عليم بذات الصدور.

(٥) إن الذين يشركون بالله قد يتمتعون قليلاً فى الدنيا، ثم هم فى الآخرة من أصحاب النار.

(٦) من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وأما الكفار والمشركون من أصحاب القلوب القاسية فهم فى ضلال مبين، والذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه يقف فى عبادة الله قانتًا آناء الليل ساجداً وقائمًا، وغيره لاه فى الدنيا حتى يفاجئه الموت: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩].

(٧) إن للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، وإن تعرضوا لشىء من الابتلاء والإيذاء فعليهم أن يهاجروا فأرض الله واسعة، أو أن يصبروا لأن الصابرين يوفون أجورهم بغير حساب.

(٨) من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ومن يهد الله فما له من مضل، ومن يضلل فما له من هاد، والرسول الكريم ما عليه إلا البلاغ، فهو ﷺ ليس على الناس بوكيل، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون.

(٩) إن رسول الله ﷺ ومن بعده كل المسلمين، بل كل الناس مأمورون جميعًا بعبادة الله ـ تعالى ـ مخلصين له الدين، وأن يكونوا لله من الشاكرين.

(١٠) إن الموت حق على العباد، وكذلك البعث والنشور.

(١١) إن الرزق من الله، وهو ـ سبحانه ـ الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

(١٢) إن الله ـ تعالى ـ هو الغفور الرحيم الذى يغفر الذنوب جميعًا.

(١٣) إن كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، ومن هنا كانت المسارعة فى التوبة إلى الله والإنابة إليه من أصول الدين.

(١٤) إن للآخرة نفختين: نفخة الصعق والتى تنفخ فى الصور فيصعق بها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ونفخة البعث والتى إذا نفخت فى الصور فإذا هم قيام ينظرون.

ثانيا: وصف مصائر كل من المؤمنين والكافرين

فى المقابلة بين ذل الأشقياء المعذبين من أهل النار الذين كفروا بالله أو أشركوا به، وبين تكريم السعداء المكرمين من أهل الجنة الذين آمنوا بالله واتقوه حق تقاته يقول ربنا ـ تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ٢٠].

ويقول عز من قائل: **﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾** [الزمر: ٢٤].

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣ ـ ٣٥].

ثالثا : استعراض جانب من مصائر الأمم السابقة

تصف الآيات فى سورة الزمر حال المكذبين فى الدنيا والآخرة، وتعرض شيئًا من ذلك كى يعتبر به المعتبرون مؤكدة أن الذين يكذبون رسالات ربهم يأتيهم العذاب فى الدنيا من حيث لا يشعرون فيخزيهم به الله ويتوعدهم بعذاب الآخرة الذى هو أدهى وأمر، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٢٥ ـ ٢٧].

رابعا : ضرب الأمثال

وفى التأكيد على عز التوحيد لله وذل الشرك به ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة الزمر المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بعبد مملوك لعدد من الشركاء المتشاجرين المتنازعين، وعبد مملوك لرجل واحد لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه عليه منازع هل يستويان مثلاً، أى حالاً وصفة فيقول عز من قائل : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩].

خامسًا : الآيات الكونية فى سورة الزمر

جاء فى سورة الزمر عدد غير قليل من الآيات الكونية الشاهدة لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة فى خلق الكون، وبالقدرة على إفنائه، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ :

(١) ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر : ٥].

(٢) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : ٦].

(٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٢١].

(٤) ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠].

(٥) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢].

(٦) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦].

(٧) ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢].

(٨) ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧].

(٩) ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩].

وكل آية من هذه الآيات الكونية التسع التى جاءت فى سورة الزمر تحتاج إلى معالجة خاصة فى عرض جوانب الإعجاز العلمى التى جاءت بها، ولكن لما كانت

آيتان منها فقط تقعان ضمن موضوع هذا الكتاب، وهما الآيتان رقم (٢١)، (٦٢) فإنى سوف أتعرض لمناقشتهما مبتدءًا بالآية رقم (٦٢) لشمول دلالتها على قضية الخلق بصفة عامة. وقبل الدخول إلى ذلك، أرى لزامًا عليَّ أن أعرض لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى شرح قوله ـ تعالى ـ :

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما نصه: «أنه خالق الأشياء كلها، وربها، ومليكها، والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره، وقهره، وكلاءته . . .».

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ مانصه: «﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى يتصرف فيه كيف يشاء».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «هذا القطاع الأخير فى السورة يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شىء، المالك المتصرف فى كل شىء، فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه!! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله هو خالق كل شىء، وهو المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض بلا شريك، فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السماوات والأرض؟!».

* وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيرًا ـ ما نصه: «﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ـ وهو وحده ـ على كل شىء وكيل، يتولى أمره بمقتضى حكمته».

* وجاء فى صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيرًا ـ ما نصه: «﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى الله ـ جل وعلا ـ خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات،

والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى : هو القائم على تدبير كل شىء».

ومن هذه الاستعراض يتضح أن المفسرين قد أوجزوا فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة على الرغم من ضخامة تلك الدلالة.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تنص هذه الآية الكريمة على أن كل ما فى عالمى الغيب والشهادة هو من خلق الله الذى خلقه بعلمه وحكمته وقدرته، ويرعاه برعايته ورحمته التى لو تخلت عن الوجود طرفة عين أو أقل من ذلك لانهار وانتهى.

ومن مخلوقات عالم الغيب ما أخبرنا به القرآن الكريم عن الملائكة والجن، ومن مخلوقات عالم الشهادة أعلمنا بكل من الإنسان والحيوان والنبات ـ من الأحياء ـ، وبمختلف صور المادة والطاقة ـ من الجمادات ـ ومن أبعاد الوجود المادى بالأماكن والأزمنة.

وعملية الخلق بأبعادها الثلاثة : خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، عملية غيبية لم يشهدها أى من الجن أو الإنس؛ ولذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى محكم كتابه : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف : ٥١].

وعلى الرغم من ذلك يقول ربنا ـ عز من قائل : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[العنكبوت : ٢٠].

وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أنه على الرغم من أن الإنسان لم يشهد عملية الخلق؛ لأنها سابقة لوجوده، إلا أن الله ـ تعالى ـ قد ترك له فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان المؤمن بالله على الوصول إلى تصور صحيح عن كيفية الخلق.

أما غير المؤمن فيرى الشواهد الحسية ويلمسها بيديه، ولكنه فى محاولة نسبة الخلق إلى غير الله فإنه يتوه فى سيل من الفروض والنظريات التى تحيد به عن الحق، ولا توصله إلى شىء صحيح أبدًا.

ولذلك جاء فى هذه الآية الكريمة قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. وجاء فى العديد غيرها من الآيات القرآنية التأكيد على حقيقة الخلق حتى لا يتوه الناس فى متاهات الكفار والمشركين الذين ضلوا وأضلوا البشرية حتى فى زمن العلوم والتقنية الذى نعيشه. ولذلك جاء الفعل خلق بمشتقاته المختلفة ٢٥٢ مرة فى القرآن الكريم، مؤكدًا أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء.

متاهة الكافرين فى قضيتى قدم الكون وتدرج عمارة الأرض بالحياة

فى محاولة لنفى الخلق وإنكار الخالق، ادعى الكافرون منذ القدم بأزلية العالم، وجاءت الكشوف العلمية المثبتة لقدم الكون، وقدم الحياة على الأرض فتصور الملحدون فى ذلك دعما لدعواهم.

كذلك جاءت عملية اكتشاف التدرج فى الخلق ابتداء من خلق اللبنات الأولية للمادة، إلى خلق كل من الجمادات والنباتات والحيوانات حتى توجت الحياة بخلق الإنسان ـ ذلك المخلوق المكرم كما وصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ جاءت تلك الكشوف فتخيل فيها الكافرون دعمًا لدعواهم الباطلة بعشوائية الخلق مما لايقوم عليه دليل واحد. فربنا ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق كله على مراحل متطاولة ـ وهو القادر على أن يقول للشىء كن فيكون ـ وذلك لسببين واضحين :

أولهما: أن الله ـ تعالى ـ قد أراد بذلك أن يتيح للإنسان المتدبر فى الكون الفرصة الكافية لفهم سنن الله الحاكمة للوجود كله حتى يتمكن من حسن توظيفها فى عمارة الأرض، كما يتمكن من أن يرى من خلالها شيئًا من قدرة الخالق العظيم، وعلمه، وحكمته، فيسجد له بالعبادة والطاعة، ويرى الوحدة فى بناء الكون ناطقة بوحدانية الخالق العظيم، كما يرى الزوجية فى جميع المخلوقين من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان شاهدة لله الخالق بكمال الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، تلك

الوحدانية التى لا ينازعه فيها منازع، ولا يشاركه فيها شريك، فالجميع إبداع خلقه، وتمام صنعته، فكيف يجرؤ أحدهم على أن يتطاول على مقام الألوهية؟ والله ـ تعالى ـ يتهدد المشركين بقوله العزيز:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ثانيهما: أن الزمن إذا كان حدّا من حدود الإنسان، ومن حدود غيره من المخلوقات، فهو من خلق الله، والمخلوق لايحد الخالق أبدا، فمهما تطاول الزمن فهو بين إصبعين من أصابع الله ـ تعالى ـ يتحكم فيه كيف يشاء.

وبدلاً من فهم القضية فى هذا الإطار، اندفع دعاة المادية إلى الافتراض الخاطئ بنفى الخلق، وإنكار الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بدعوى أزلية الخلق، أو عشوائيته، وهما افتراضان يتعارضان مع جميع الملاحظات العلمية الدقيقة فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء، ومن هنا جاءت الآية القرآنية الكريمة التى نحن بصددها شاهدة، كما جاء غيرها من مئات الآيات التى تشهد بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء.

قدم الكون وانتفاء أزليته وأبديته يؤكدان حقيقة الخلق

تؤكد الملاحظات العلمية فى الجزء المدرك من الكون أن الحرارة تنتقل فيه باستمرار من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولو كان الكون أزليّا كما يدعى المبطلون لتساوت حرارة جميع الأجسام فيه وانتهى وجوده منذ زمن بعيد، واستمرار الكون فى التواجد مع استمرار الانتقال الحرارى ينفى أزليته، كما ينفى أبديته، ويؤكد أنه مخلوق، مستحدث، له فى الأصل بداية (يقدرها العلماء اليوم بحوالى أربعة عشر بليونًا من السنين)، ولابد وأن سوف تكون له فى يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ والسنن الحاكمة للكون اليوم تشير إلى حتمية وقوعها، ولا تحدد موعدها، ومن ذلك أن الشمس تفقد من كتلتها فى كل ثانية على هيئة طاقة ما يعادل ٤,٦ مليون طن، وكما تفقد الشمس من كتلتها تفقد بقية النجوم، فهذا الكون الذى تتواجد فيه هو حتمًا إلى زوال فى لحظة يحددها الخالق ـ جلت قدرته ـ الذى أنزل لنا فى محكم كتابه قوله الحق:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

الانفجار العظيم يؤكد حقيقة الخلق

من الحقائق التى وصل إليها علماء الفلك منذ بدايات القرن العشرين حقيقة توسع الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال علماء الفلك: إننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلا بد من التقاء كل مادة الكون وطاقته مع المكان والزمان فى جرم واحد يتضاءل فى الحجم إلى حد العدم، ويتعاظم فى كم المادة والطاقة إلى حد توقف كل قوانين الفيزياء المعروفة، وهى حالة لا يستطيع العقل البشرى أن يتصورها. وهذا الجرم الابتدائى انفجر فتحول إلى سحابة من الدخان خلقت منها الأرض والسماوات. وقد سميت هذه النظرية باسم «نظرية الانفجار العظيم»، ومن شواهدها تمدد الكون، ووجود درجة حرارة ثابتة ـ حوالى ٣ درجات مطلقة ـ على جميع أطراف الجزء المدرك من الكون، ومن شواهدها كذلك تصوير بقايا الدخان الكونى الأولى على أطراف الجزء المدرك من الكون.

وعلى الرغم من معارضة عدد قليل من المتخصصين فى مجال علوم الفلك والفيزياء الفلكية لنظرية الانفجار العظيم، فإننا ـ معشر المسلمين ـ نقبل هذه النظرية، ونرتقى بها إلى مقام الحقيقة لوجود إشارة لها فى كتاب الله من قبل أربعة عشر قرنًا يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وخلق الكون بعملية انفجار كبرى من أعظم الدلائل على الخلق والتدبير؛ لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدى إلى بعثرة المادة وتناثرها، مخلفًا وراءه الدمار، أما عملية الانفجار الكونى فقد أدت إلى إبداع نظام له تصميم دقيق،

محكم الكتل، والأحجام، والأبعاد، والمدارات، والسرعات، والعلاقات، وهذا النظام مبنى على نسق واحد من أدق دقائقه إلى أعظم وحداته على الرغم من تعاظم أجرامه وأبعاده ووحداته وتجمعاته، وتعقد علاقاته، مما يشهد للخالق العظيم بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وانفجار هذه نتيجته لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير وتقدير بالغى الإحكام والإتقان والإحاطة والقدرة التى لا يستطيعها إلا الخلاق الحكيم العليم.

وجود المادة وأضدادها يؤكد على حقيقتى الخلق والتدبير

منذ الربع الأول للقرن العشرين، وكلّ من الحسابات الرياضية والاكتشافات فى صفحة السماء يؤكدان حقيقة الزوجية فى الخلق، فالضوء يتحرك أحيانًا على شكل موجات وأحيانًا أخرى على شكل جسيمات - فوتونات -، وهذه الزوجية فى الخلق تتحقق أيضًا للمادة، فالجزء من المادة ليس نقطة هندسية، ولكنه كيان ينتشر أيضًا فى الفضاء على هيئة موجية. وقد أدت هذه الملاحظة إلى اكتشاف نقيض للإلكترون (أو قرين له)، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإن أحدهما يلغى الآخر، أى يفنيه وينهى وجوده إلى العدم. ومعنى ذلك أن أية كمية محدودة من الطاقة يمكن أن تتجسد فى جسيمين، أحدهما نقيض لصاحبه فى كل صفاته، أى صورة طبق الأصل له ولكنه معكوس الصفات، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإنهما يفنيان معًا. والغريب فى الأمر أن يكتشف فى صفحة السماء المادة وأضدادها على مختلف المستويات من اللبنات الأولية للمادة إلى المادة ذاتها ومن ذلك:

- الكواركات وأضدادها (**Quarks and Antiquarks**).
- النيوترينوات وأضدادها (**Neutrinos and Antineutrinos**).
- الإليكترونات وأضدادها

[**Electrons (Negatrons) and Antielectrons (Positrons)**].

- البروتونات وأضدادها (**Protons and Antiprotons**).
- النيوترونات وأضدادها (**Neutrons and Antineutrons**).
- المادة وأضدادها (**Matter and Antimatter**).

ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الكون قد بدأ بتركيز من المادة وأضدادها أى بدأ من العدم. والسؤال الذى يفرض نفسه هو : من الذى فصل تلك الأضداد حتى يخلق الكون ؟ ولا يمكن لعاقل أن يتصور ذلك بغير تقدير الخلاق العليم ـ سبحانه وتعالى ـ.

وحتى بعد فصل الأضداد لكى يخلق الكون، يرى العلماء حتمية إفناء بعضها للبعض الآخر، والسؤال الذى يفرض نفسه هو : ما الفاصل بين المادة وأضدادها فى صفحة السماء الآن حتى يوجد الكون ؟ ومن الذى وضع هذا الفاصل؟ ولا يزال يحفظه؟ والجواب الذى لا مفر منه هو : وضعه الخالق العظيم الذى يقول للشىء كن فيكون. وعلى ذلك فإن مراحل خلق الكون منذ لحظة الانفجار العظيم قد خططت لها العناية الإلهية بدقة فائقة فى ضبط درجات الحرارة، ومعدلات تخلق الجسيمات الأولية للمادة، وسرعات الاتساع الكونى، وغير ذلك من أمور تمت بدقة فائقة وإحكام شديد حتى وصل الكون إلى حالته الراهنة، ولا يمكن لكل ذلك أن يتم بغير خلق وتدبير من الله الخبير العليم.

خلق العناصر فى داخل النجوم وفى صفحة السماء من أدلة الخلق والتدبير

فى دراسة للتركيب الكيميائى للجزء المدرك من الكون، اتضح أن غالبيته يتكون من غاز الأيدروچين الذى يشكل أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون المنظور، والأيدروچين هو أخف العناصر وأقلها بناء. ويلى غاز الأيدروچين كثرةً غاز الهيليوم الذى يكون ٢٤٪ من مادة الكون المنظور ـ وهو العنصر الثانى فى الجدول الدورى للعناصر ـ وقد دفعت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج الصحيح أن جميع العناصر المعروفة وعددها أكثر من مائة عنصر قد خلقت كلها من غاز الأيدروچين (تآصل العناصر).

وبدراسة أقرب النجوم إلينا ـ وهى الشمس ـ اتضح أن وقودها هو غاز الأيدروچين الذى تتحد أربع من نوياته ـ جمع نواة مصغر ـ لتكون نواة عنصر الهيليوم، و بعملية تسمى عملية الاندماج النووى تنطلق الطاقة، وعلى ذلك فالنجوم عبارة عن أفران ذرية كونية عملاقة تتخلق بداخلها العناصر من نوى ذرات

الأيدروچين، حتى الحديد الذى لا تصله عملية الاندماج النووى إلا فى آخر مراحل حياة النجوم العملاقة فى لحظات انفجارها المعروفة باسم «المستعرات العظمى»، وبانفجار المستعر الأعظم تتناثر مكوناته من الحديد فى صفحة السماء لتدخل فى مجال جاذبية أجرام تحتاج الحديد، أو لتصطاد بعض اللبنات الأولية للمادة مكونة العناصر الأعلى فى وزنها الذرى من عنصر الحديد. وهذه العملية وحدها كافية للتأكيد على حقيقة الخلق.

بناء الخلية الحية ينطق بحتمية الخلق والتدبير

* إذا علمنا أن عدد الأنواع الحية المعروفة لنا حتى الآن يتعدى المليون ونصف المليون نوع، وأن عدد الأنواع المندثرة والموجود لها بقايا على هيئة أحافير فى صخور الأرض يتعدى الربع مليون نوع، وأن عدد الأنواع المتوقعة للحياة الأرضية فى ضوء الاكتشافات المعاصرة يصل إلى حوالى خمسة ملايين نوع.

* وأن متوسط المدى الزمنى للنوع الواحد من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة إلى خمسة ملايين من السنين، وقد يصل إلى عشرة ملايين من السنين فى بعض الحالات، ويمثل النوع فى كل سنة من هذه الملايين من السنين ببلايين الأفراد.

* وأن جسم الإنسان على سبيل المثال يتكون فى المتوسط من ألف مليون مليون نوع من أنواع مختلفة من الخلايا، والأرض يعمرها اليوم أكثر من ستة بلايين إنسان.

* وأن الخلية الحية الواحدة على قدر من التعقيد فى البناء يفوق كل ما حققه الإنسان من إنجازات تقنية، فضلاً عن كل الذى فكر فى تحقيقه ولم يتمكن من ذلك بعد، على الرغم من ضآلة حجمها الذى يبلغ ٠,٠٣ من المليمتر فى المتوسط فى جسم الإنسان.

فالخلية الحية تتكون عادة من جدار حىٍّ - فى كلٍّ من الإنسان والحيوان - ملىء بالسائل الخلوى (الهيولى - السيتوپلازم)، وبوسط هذا السائل توجد النواة، والسائل الخلوى معقد التركيب، وغير متجانس، ويتكون بشكل رئيسى من البروتينات والدهون، والسكريات، وبعض العناصر المختلفة، وهذا السائل توجد

به أعداد من الجسيمات المتخصصة - العضيات - ويعمل كوسيط تمر من خلاله المواد والمركبات والأوامر من النواة إلى أى من هذه العضيات، ومن أى منها إلى عضى آخر، أو إلى خارج الخلية.

ويفصل النواة عن السيتوپلازم غشاءان، والنواة تختزن معظم مادة الشفرة الوراثية للخلية الحية. أما الشبكة الإندوپلازمية فتربط بين الغشاء النووى والغشاء الخلوى، وهى شبكة معقدة تتصل بها حبيبات صغيرة تدعى الريبوسومات تقوم بتصنيع أكثر من مائتى ألف نوع من البروتينات التى تحتاجها الخلية الحية، حسب التعليمات التى تتلقاها من نواة الخلية، ومن العضيات ما يحمل الإنزيمات وهى مواد پروتينية تصنعها الريبوسومات وتساعد على هضم المواد الغذائية داخل الخلية، ومن العضيات ما يقوم بتحويل المواد العضوية إلى طاقة تحتاجها الخلية الحية فى عدد من نشاطاتها المحددة، وتعرف باسم المتقدرات (**Mitochondria**).

وتختلف الخلية النباتية فى أن جدارها مكون من مواد غير حية، وأنها تحتوى على البلاستيدات الخضراء - اليخضور - وهى مادة لازمة لإتمام عملية التمثيل الضوئى.

والشفرة الوراثية تحملها جسيمات دقيقة فى داخل نواة الخلية تعرف باسم «الصبغيات»، وعددها محدد لكل نوع من أنواع الحياة، والصبغيات تحمل المورثات (الچينات) التى تحمل صفات الفرد من هذا النوع، والتى تعطى الأوامر للخلية بالانقسام، والتميز، وتخليق الأنواع المختلفة من البروتينات، وعلى ذلك فالنواة هى مركز المعلومات للخلية. وتحاط النواة بغشاء يسمى «الغلاف النووى»، وتحتوى على مادة حبيبية دقيقة تسمى «البلازما النووية» التى تحمل كلاً من الصبغيات والنوية، وقد تكون النوية واحدة أو أكثر.

وإذا علمنا أن الخلية الحية قد أعطاها الخالق - سبحانه وتعالى - القدرة على إنتاج مائتى ألف نوع من البروتينات التى يوجد منها أكثر من مليون نوع، وأن الجزىء البروتينى يتكون من سلاسل من جزيئات الأحماض الأمينية، وأن الأحماض الأمينية المعروفة والقادرة على بناء الجزيئات البروتينية هى عشرون حمضاً أمينيّا، وأن هذه الأحماض مواد جامدة غير حية بذاتها، متبلورة وسهلة الذوبان فى الماء فى أغلب الأحوال. وأن الحمض الأمينى يتكون من ستة عناصر أساسية هى الكربون،

والأيدروچين، والأوكسچين، والنيتروچين، والكبريت، والفوسفور. وأن مجرد اختيار هذه العناصر الستة من بين أكثر من مائة عنصر معروف لنا اليوم بالصدفة هو - إحصائيًا - أمر مستحيل.

وإن الأحماض الأمينية المناسبة لبناء الجزىء البروتينى لا بد أن تكون من نوع خاص (ألفا)، وأن تكون الذرات مرتبة فيها حول ذرة الكربون ترتيبًا يساريًا، وأن تترتب هى فى الجزىء البروتينى ترتيبا يساريا كذلك، وأن ترتبط برباط خاص يعرف باسم «الرباط الپيپتيدى - Peptide Bond» وأن هذه القيود تجعل من تكوين جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة أمرًا مستحيلا.

وإذا علمنا أن أبسط جزىء بروتينى يتكون من خمسين جزيئا من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المعروفة، وأن جزيئات هذه الأحماض الأمينية لا ترتبط لتكون الجزىء البروتينى إلا بكل القيود السابقة، وأن بعض أنواع الجزىء البروتينى مكون من آلاف الجزيئات للأحماض الأمينية المرتبة ترتيبًا محددًا، اتضح لنا بجلاء أن مجرد تكون جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة هو - إحصائيًا - من مستحيل المستحيلات، وإذا كان هذا هو الحال فى نفى إمكانية تكون جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة فإن تكون خلية حية واحدة بمحض الصدفة هو أشد استحالة، وتتأكد استحالة عشوائية الخلق أو إمكانية للصدفة فيه إذا نظرنا إلى الأعداد غير النهائية من الخلايا الحية التى تنتظمها أنواع متخصصة، فى أنسجة متخصصة، فى أعضاء متخصصة تعمل بتوافق تام لخدمة النوع من الحياة التى تتجمع فيه، وتشهد لخالقها بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة بهذا القرار الإلهى من قبل ألف وأربعمائة سنة لتريح هذه النفوس القلقة، والعقول المضطربة بين العديد من النظريات التى طرحت كبدائل للخلق وانتهت كلها بالفشل الذريع فسبحان القائل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وهو سبق علمى لكل المعارف البشرية يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى تلقى القرآن عن ربه فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين، فجزاه الله عنا خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

رسم توضيحى لبعض بدايات الحياة البحرية القديمة التى انتشرت فى بحار العصر الكمبرى (من ٥٧٠ مليون سنة مضت إلى ٥١٠ مليون سنة مضت). وفيها بعض الأعشاب البحرية، والخلية ـ والإسفنجيات، والديدان الحلقية، والمفلطحة، والحلقية، وشوكيات الجلد، وبعض الرخويات والمرجانيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[الأنبياء:٣٠]

obeikandl.com

obeikandl.com

﴿ ..... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾

[الأنبياء: ٣٠]

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى مطلع الربع الثانى من سورة الأنبياء وهى سورة مكية، وآياتها اثنتا عشرة ومائة بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسى حول قضية العقيدة الإسلامية ومن ركائزها الإيمان بالله ربّا، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والتوحيد الخالص لجلال الله - بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد. وقد سميت السورة بهذا الاسم لاستعراضها سير عدد كبير من أنبياء الله.

عرض موجز لسورة الأنبياء

ابتدأت السورة الكريمة بالإشارة إلى غفلة الناس عن الحساب، وعللت تلك الغفلة بانصراف أغلب أهل الأرض عن الهداية الربانية التى أنزلها الله - تعالى - على عدد من الأنبياء والمرسلين، وأتمها، وأكملها، وحفظها فى القرآن الكريم، وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

وضربت سورة الأنبياء مثلاً على ذلك بغفلة كفار قريش، الذين أنكروا نبوة ورسالة هذا الرسول الخاتم - وأمثالهم فى هذا الزمان كثير - واتهموه - شرفه الله تعالى - كما يتهمه كفار ومشركو اليوم - بالسحر، والهلوسة، والافتراء، والشعر، وطالبوه بعدد من المعجزات الحسية كالتى جاء بها سلفه من الأنبياء والمرسلين، ناسين أو متناسين كفر الكافرين بتلك السلسلة الطويلة من رسل الله وأنبيائه، على الرغم من تأييد الله لهم بالمعجزات، وناسين أو متناسين أن جميع هؤلاء الأنبياء والمرسلين كانوا بشراً مختارين، مما يدحض اعتراضهم على بشرية

خاتمهم ﷺ، وناسين أو متناسين أن الله - تعالى - قد أهلك المتقدمين من الكفار والمشركين، ومن الطغاة المتجبرين، فلم يعتبروا بهلاكهم حتى إذا فاجأتهم عقوبة من الله رفعوا أصواتهم بالاستغاثة والضراعة صاغرين، متذللين. . . !!

وأكدت الآيات فى سورة الأنبياء أنه لو أعرض أهل الأرض جميعًا عن طاعة خالقهم وعبادته، فإن الملائكة لا يستكبرون عن الخضوع الدائم لجلاله، ولا عن تسبيحه، وتمجيده، وحمده، ولا يملون ذلك أبدًا: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

واستشهدت سورة الأنبياء بالعديد من الآيات الكونية على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - فى إتقانه لصنعته، وعلى وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، وعلى تنزيهه - سبحانه - عن الشريك، والشبيه، والصاحبة، والولد، وهو - تعالى - رب كل شىء ومليكه، ومن ينازعه فى سلطانه فجزاؤه جهنم وبئس المصير.

وتؤكد السورة الكريمة أن الموت حق على العباد، وأن الدنيا دار ابتلاء بالخير والشر، وأن جميع المخلوقين عائدون حتمًا إلى خالقهم.

وتواسى الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن جميع من سبقوه تاريخيًا من أنبياء الله ورسله قد لاقوا من كفار أقوامهم، وشراذم أممهم، وحثالات مجتمعاتهم مثل ما لاقى - ولا يزال يلاقى - من التكذيب والسخرية والاستهزاء، وقد نال السابقون من هؤلاء المكذبين نكالاً من الله فى الدنيا، ولهم فى الآخرة العذاب المقيم، وهو نفس جزاء المكذبين من بعد ذلك إلى أيامنا هذه وإلى يوم الدين، فالله - تعالى - يضع الموازين العادلة فلا تظلم نفس شيئًا. . . !!

واستعرضت سورة الأنبياء قصص عدد من هؤلاء المصطفين الأخيار، منهم موسى وهارون - عليهما السلام - وقد آتاهما الله - تعالى - التوراة نورًا وضياءً، وجعلها فارقة بين الحق والباطل، وتذكرة للمتقين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وتؤكد الآيات أن القرآن الكريم قد جاء من نفس المشكاة، وهو كتاب مبارك، أنزله الذى أنزل التوراة من قبل، فلا ينكره إلا ضال.

وممن ذَكَّرت بهم السورة من أنبياء الله ورسله : «أبو الأنبياء إبراهيم الخليل»، ولخصت حواره مع قومه من عبدة الأوثان، ودعوته إياهم إلى التوحيد الخالص، وتنجية الله ـ تعالى ـ له من كيدهم، وبعثه وابن أخيه لوطًا إلى أرض فلسطين المباركة، ووهبه ـ على الكبر ـ ذرية صالحة، وتنجية لوط من القرية التى كانت تعمل الخبائث، والتى دمرها الله ـ تعالى ـ تدميراً.

وأضافت السورة الكريمة ذكر نوح عليه السلام وقصته مع قومه الذين كذبوه فأغرقهم الله ـ تعالى ـ ونجى نوحًا ومن آمن معه، وقصة كل من داود وسليمان، وما أكرمهما الله ـ تعالى ـ به من معجزات وكرامات، وقصة أيوب وما مسه من ضر وبلاء صبر عليه فكشفه الله ـ تعالى ـ عنه، وقصص كلّ من إسماعيل، وإدريس، وذى الكفل، الذين كانوا من أهل الإحسان والصبر، وقصة يونس ـ على نبينا وعليه وعلى أنبياء الله جميعًا من الله السلام ـ والحوت الذى التقمه، وتنجية الله ـ تعالى ـ له منه، وقصة زكريا عليه السلام وقد رزقه الله تعالى ـ على الكبر ـ ابنًا صالحًا، وقصة السيدة مريم البتول، وولادتها بمعجزة حقيقية لابنها عيسى ـ عليه وعليها من الله السلام ـ ومن هنا كانت تسمية هذه السورة المباركة باسم «سورة الأنبياء».

وبعد هذا السرد التاريخى المعجز يأتى القرار الإلهى الحاسم : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢].

وفيه من التأكيد على وحدة الرسالة السماوية، ووحدة هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء والمرسلين، ما يدعم صدورها عن الإله الواحد الذى خلق الخلق، واصطفى منهم الأنبياء والمرسلين، وأوحى إليهم جميعًا بدينه القويم ـ الإسلام ـ الذى أنزله على فترة من الأنبياء والمرسلين (مائة وعشرين ألف نبى، اصطفى الله ـ تعالى ـ منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً) وأكمله، وأتمه وحفظه فى الرسالة الخاتمة ـ القرآن الكريم ـ المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس فى وسط النهار فقد اختلف الناس فى أمر الدين، وأصبحوا فيه شيعًا متعارضين، والجميع راجعون إلى

الله ـ تعالى ـ ليحاسبهم، ويجازيهم على ما كانوا يعتقدون، وما كانوا يعملون. وقد أوضح الله ـ تعالى ـ للجميع، أن الذين أهلكوا فى الدنيا لكفرهم وشركهم وطغيانهم قد أدركوا ذلك بعد هلاكهم، وتمنوا العودة مرة أخرى إلى الحياة الدنيا ليتوبوا إلى الله، ويعودوا إلى طاعته وعبادته وتوحيده ولكن هيهات لهم أن يعودوا إلا عند قيام الساعة حين يبعث الخلق أجمعون.

وتتحدث الآيات فى سورة الأنبياء عن سد يأجوج ومأجوج، وعن الإشعار بقرب فتحه، وتدافع هذا الخلق للخروج منه، وانتشارهم، فى كل فج، وتزاحمهم على النزول من كل مرتفع، متسارعين للإفساد فى الأرض، وخروجهم من العلامات الكبرى للساعة، ومن نبوءات القرآن العظيم والرسول الخاتم ﷺ باقتراب وقتها . . . . ويومئذ يُرى الكافرون والمشركون وأبصارهم شاخصة من شدة الهول والفزع، وتصف الآيات جانبًا من مشاهد هذا اليوم العصيب، وتمايز بين موقف كل من المؤمنين والكافرين فيه.

وتؤكد السورة فى أواخرها أن الرسول الخاتم والنبى الخاتم ﷺ قد أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، داعيًا الناس جميعًا إلى التوحيد الخالص لله الخالق، فإن تولوا فما عليه إلا أن يقول: قد أعلمتكم جميعًا بالحق، وأنذرتكم بما توعدون، ولا أدرى أقريب هو أم بعيد، وأخبرتكم بأن الله ـ تعالى ـ هو علام الغيوب، الذى لا يخفى عليه شىء، وأنه ـ تعالى ـ سوف يجازى كلاً بعمله، ولست أدرى إن كان إمهالكم لمزيد من البقاء فى الدنيا هو ابتلاء لكم أم فتنة.

وتختتم السورة الكريمة بهذا الدعاء الكريم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

أى: يا رب احكم بعدلك المطلق بينى وبين هؤلاء المكذبين بالحق الذى أرسلتنى به، وأنت المستعان على ما يصفون من الكفر والتكذيب، وبهذا التفويض لله ـ تعالى ـ والاستعانة به والضراعة إليه تختتم سورة الأنبياء.

من الآيات الكونية فى سورة الأنبياء

فى مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وعلى وحدانية الخالق العظيم، أشارت سورة الأنبياء إلى عدد من الآيات الكونية التى يمكن إيجازها فيما يلى :

١ ـ التأكيد على أن خلق السماوات والأرض قد تم بالحق، أى بنظم فائقة الدقة والانتظام.

٢ ـ التلميح إلى أن وحدة البناء فى الخلق تؤكد وحدانية الخالق ـ سبحانه وتعالى.

٣ ـ الإشارة إلى أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقهما الله ـ تعالى.

٤ ـ التصريح بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل من الماء كل شىء حى.

٥ ـ الإشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ خلق الجبال، وجعلها رواسى للأرض، وجعل فيها فجاجًا سبلاً للناس، يسلكونها ويهتدون بها.

٦ ـ تأكيد أن الله ـ تعالى ـ قد جعل السماء سقفًا محفوظًا.

٧ ـ الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بتتابع كلٍّ من الليل والنهار وتبادلهما، وتأكيد جرى كلٍّ من الأرض والشمس والقمر فى مداراتها بالوصف القرآنى المعجز : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٣].

٨ ـ تأكيد حقيقة أن كل نفس ذائقة الموت.

٩ ـ الإشارة إلى أن الإنسان خلق من عجل.

١٠ ـ الإشارة إلى إنقاص الأرض من أطرافها فى مجاز معجز.

١١ ـ الإشارة إلى حتمية طى السماء كطى السجل للكتب، والعودة بالكون إلى هيئته الأولى ـ رتقًا متصلاً ـ قبل فتقه إلى السماوات والأرض الجدد.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن تأتى الإشارة فيه إلى كيفية خلق الكون، وإلى كيفية إفنائه فى سورة واحدة، والإشارة إلى خلق كل شىء حى بين هذين الحدين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الرابعة فقط من هذه القائمة والتى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقبل الدخول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «وقوله (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى أصل كل الأحياء، عن أبى هريرة قال، قلت : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى، فأنبئنى عن كل شىء، فقال : «**كل شىء خلق من ماء**» قال : فأنبئنى بعمل إن عملت به دخلت الجنة، قال : «**أفش السلام، وأطب الكلام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام**»[1].

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره : « ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ النازل من السماء والنابع من الأرض ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ نبات وغيره، أى : فالماء سبب لحياته ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيدى؟».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : « فأما شطر الآية الثانى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرًا عظيمًا . . إن الماء هو مهد الحياة الأول. وهى حقيقة تثير الانتباه حقًا، وإن كان ورودها فى القرآن الكريم لا يثير العجب فى نفوسنا، ولا يزيدنا يقينًا بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق فى كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له، ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله فى الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة فى الوجود : أفلا يؤمنون؟ وكل ما حولهم فى الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم».

(١) أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٩٣ : حديث ١٠٣٤٩).

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن - رحمه الله مؤلفه - ما نصه: «﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ خلقنا من الماء كل شىء حى، أى متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان، أو كل شىء نام فيدخل النبات، ويراد من الحياة ما يشمل النمو. وهذا العام مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حى».

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «أعمى الذين كفروا، ولم يبصروا . . . . ، وجعلنا من الماء الذى لا حياة فيه كل شىء حى؟ ! فهل بعد كل هذا يعرضون، فلا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله؟ !».

وجاء بالهامش هذا التعليق: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾: «تقرر هذه الآية حقيقة علمية أثبتها أكثر من فرع من فروع العلم، فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون المهم فى تركيب مادة الخلية، وهى وحدة البناء فى كل كائن حى نباتًا كان أو حيوانًا، وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التى تتم داخل أجسام الأحياء، فهو إما وسط، أو عامل مساعد، أو داخل فى التفاعل، أو ناتج عنه. وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضرورى لقيام كل عضو بوظائفه التى بدونها لا تتوافر له مظاهر الحياة ومقوماتها».

* وجاء فى صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أى جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسببًا للحياة، فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: أفلا يصدقون بقدرة الله؟».

الماء فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم

الماء سائل شفاف تقوم عليه الحياة، وهو فى نقائه لا لون له، ولا طعم ولا رائحة، وقد وهبه الله - تعالى - من الصفات الطبيعية والكيميائية ما يمكنه من القيام بدوره الأساسى فى أجساد كل صور الحياة.

والهمزة فى اسمه مبدلة من الهاء لأن أصله (موه) وجمعه (أمواه) فى القلة، و(مياه) فى الكثرة، وتصغيره (مويه)، والنسبة إلى (ماء) هى (مائى) أو (ماوى).

ولفظة (ماء) وردت فى القرآن الكريم ثلاثا وستين مرة، وهى لفظة تدل على الجمع والمفرد معًا ـ فتقول ماء البحر كما تقول قطرة ماء ـ وذلك لأن (ماء) اسم جنس إفرادى: قليله وكثيره سواء من مثل لفظة (زيت).

ومن هذه المرات الثلاث والستين والتى جاءت ـ فى معظمها ـ بمعنى السائل المعروف الذى يشربه كلٌّ من الإنسان والحيوان، ويروى به النبات، جاءت لفظة (ماء) فى القرآن الكريم أربع مرات بمعنى النطفة ـ أى: ماء التناسل ـ كما جاءت كلمة (ماء) تسعًا وخمسين مرة غير متصلة بضمير، وأربع مرات متصلة بضمير من الضمائر.

وهذه المرات الثلاث والستون التى جاء فيها ذكر لفظة (ماء) أو (الماء) فى كتاب الله (فى إحدى وستين آية مباركة ورد فى اثنتين منها ذكر الماء مرتين) يمكن تصنيفها فى المجموعات العشر التالية:

أولاً: آية واحدة تدل على أن عرش الله ـ تعالى ـ كان على الماء (هود: ٧)، وعرش الله ـ تعالى ـ من أمور الغيب المطلق الذى لا يستطيع العلم المكتسب أن يقول فيه شيئًا.

ثانيًا: آية واحدة تدل على أن أصل ماء الأرض كله من داخل الأرض (النازعات: ٣١).

ثالثًا: آيتان كريمتان تثبتان أن الله ـ تعالى ـ قد خلق كل شىء من الماء (الأنبياء: ٣٠)، (النور: ٤٥).

رابعًا: ثمان وعشرون آية كريمة تصف دورة الماء حول الأرض بإنزاله من السماء، وتصريف الرياح وتسخير السحاب فى تلك الدورة التى جعلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لتطهير ماء الأرض، ولسقيا كلّ من الإنسان والحيوان وإنبات مختلف أنواع النباتات وريها بانتظام (البقرة: ٢٢، ١٦٤؛ الأنعام: ٩٩؛ الأعراف: ٥٧؛ الأنفال: ١١؛ الرعد: ٤، ١٧؛ إبراهيم: ٣٢؛ الحجر: ٢٢؛ النحل: ١٠، ٦٥؛ طه: ٥٣؛ الحج: ٥، ٦٣؛ الفرقان: ٤٨؛ النمل: ٦٠؛

العنكبوت : ٦٣ ؛ الروم : ٢٤ ؛ لقمان : ١٠ ؛ السجدة : ٢٧ ؛ فاطر : ٢٧ ؛ فصلت : ٣٩ ؛ الزخرف : ١١ ؛ ق : ٩ ؛ الواقعة : ٦٩ ؛ المرسلات : ٢٧ ؛ النبأ : ١٤ ؛ عبس : ٢٥).

خامسًا : خمس آيات تصف خزن ماء المطر تحت سطح الأرض بتدبير من الله - سبحانه وتعالى - وتقدير حكيم منه (البقرة : ٧٤ ، الكهف : ٤١ ، المؤمنون: ١٨ ، الزمر : ٢١ ، الملك : ٣٠ ، وقد ذكر فيها الماء مرتين).

سادسًا : ثمانى آيات مباركات تشير إلى ماء له علاقة بأحداث تاريخية (هود : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ والقصص : ٢٣والقمر : ١١ ، ١٢ ، ٢٨ والحاقة : ١١).

سابعًا : آيتان كريمتان تشيران إلى التيمم فى غيبة وجود الماء (النساء : ٤٣ ، المائدة : ٦).

ثامنًا : خمس آيات مباركات تذكر الماء فى الآخرة إما فى الجنة أو فى النار (الأعراف : ٥٠ ، إبراهيم : ١٦ ، الكهف : ٢٩ ، محمد : ١٥ وقد أشير فيها إلى الماء مرتان ، الواقعة : ٣١).

تاسعًا : خمس آيات كريمات استخدمت للتشبيه أو لضرب المثل (يونس : ٢٤ ، الرعد : ١٤ ، الكهف : ٤٥ ، النور : ٣٩ ، الجن : ١٦).

عاشرًا : أربع آيات تشير بالماء إلى النطف ، أى إلى ماء التناسل (الفرقان : ٥٤ ، السجدة : ٨ ، المرسلات : ٢٠ ، الطارق : ٦).

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الدلالات العلمية التى يمكن استخلاصها من قول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ما يلى :

أولاً : أن الماء سابق فى وجوده على جميع الخلائق ، فقد أثبتت دراسات علوم الأرض أن هذا الكوكب يرجع عمره إلى أكثر من ٤,٦ بليون سنة ، بينما يرجع عمر أقدم أثر للحياة فى صخور الأرض إلى ٣,٨ بليون سنة ، وهذا يعنى أن عملية إعداد الأرض لاستقبال الحياة استغرقت أكثر من ثمانمائة مليون سنة وربنا - تبارك وتعالى - قادر على أن يقول للشىء كن فيكون ، **وإنما جاء الخلق على مراحل**

متطاولة من الزمن بهدف إعانة الإنسان على تتبع سنن الله فى الأرض، وعلى حسن توظيفها فى عمارة الحياة؛ لأن كلاً من الزمان والمكان إذا كان من أبعاد المادة، وحدود الإنسان، فهو من خلق الله، والمخلوق لا يحد الخالق أبدًا ... فالله ـ تعالى ـ فوق جميع خلقه بما فى ذلك السمادة والطاقة والزمان والمكان.

وخلال هذه الفترة الطويلة من إعداد الأرض لاستقبال الحياة، فجّر الله ـ تعالى ـ الأرض بالثورات البركانية التى أخرجت كلاً من أغلفة الأرض الصخرية، والمائية، والغازية، كما كوّنت السلاسل الجبلية، التى اندفعت من قاع المحيط الأولى الغامر للأرض، وشكلت أعلى قمة فى هذه السلاسل الجبلية ارتفعت فوق مستوى سطح الماء أول يابسة ظهرت من الغلاف الصخرى للأرض، وكانت هى أرض مكة المكرمة، وظلت هذه اليابسة فى النمو حتى تكونت القارة الأم التى قسمها الله ـ تعالى ـ بعد ذلك بالتصدع إلى سبع قارات بدأت تنزاح متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى مواقعها الحالية ولا تزال فى حركة مستمرة إلى اليوم، وبهذا تهيأ كوكبنا ليكون محضنًا صالحًا للحياة الأرضية.

ثانيًا : أن الله ـ تعالى ـ خلق كل صور الحياة الأرضية الباكرة فى الماء؛ لأن الأوساط المائية فى بدء خلق الأرض كانت أنسب البيئات لاستقبال الحياة، ودراسات بقايا الحياة فى صخور الأرض تشير إلى أن الحياة المائية استمرت وحدها قرابة ٣٣٦٠ مليون سنة (فى الفترة من ٣٨٠٠ مليون سنة مضت إلى ٤٤٠ مليون سنة مضت حين وجد أقدم بقايا للنباتات الأرضية التي نمت على اليابسة.

ثالثًا : كذلك أثبتت دراسات علوم الأرض أن خلق النبات كان دومًا سابقًا لخلق الحيوان، وأن عملية الخلق قد توجها الله ـ تعالى ـ بخلق الإنسان، وعلى ذلك فإن خلق النباتات البحرية كان سابقًا لخلق الحيوانات البحرية، وكذلك خلق النباتات الأرضية على اليابسة كان سابقًا لخلق الحيوانات على اليابسة، وكل ذلك كان سابقًا لخلق الإنسان وهو المخلوق الذى كرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقال عز من قائل: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ [الإسراء: ٧٠].

والحكمة من ذلك جلية، بينة واضحة؛ لأن الإنسان يعتمد فى غذائه على كلٍّ من النبات والحيوان. **ولأن كلاً من الإنسان والحيوان يعتمد فى غذائه على النبات،**

ولأن النباتات لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ الدور الرئيسى فى إمداد الغلاف الغازى للأرض بالأكسچين الذى بدونه ما كانت حياة أى من الإنسان أو الحيوان ممكنة...!!

يضاف إلى ذلك أن النبات الأخضر هو المصنع الربانى الذى تتخلق فيه الجزيئات العضوية اللازمة لبناء أجساد كل صور الحياة النباتية والحيوانية والإنسية، وذلك بواسطة الماء المرتفع مع العصارة الغذائية المستمدة من الأرض، وثانى أكسيد الكربون المستمد من الغلاف الغازى للأرض، والطاقة المستمدة من الشمس. وعملية التمثيل الضوئى فى النباتات الخضراء لا تتم فى غيبة الماء، الذى يتكون كل جزىء فيه من ذرتى أيدروچين، وذرة أكسچين واحدة، والنبات يستمد الماء من العصارة الغذائية التى تمتصها جذوره من تربة وصخور الأرض، ويستمد الطاقة من ضوء الشمس بواسطة الصبغة الخضراء المعروفة باسم «اليخضور»، والتى أودعها الله ـ تعالى ـ فى خلايا النبات وأعطاها القدرة على تحليل جزىء الماء إلى أيون من الأيدروچين يحمل شحنة كهربائية موجبة، وأيون آخر من الإيدروكسيد يحمل شحنة كهربائية سالبة، وباتحاد كل اثنين من أيونات الإيدروكسيد يتكون جزىء من الماء وذرة من ذرات الأكسچين الذى ينطلق إلى الغلاف الغازى للأرض لتعويض ما تستهلكه بقية الكائنات الحية من هذا الغاز الضرورى للحياة عن طريق التنفس.

وتتحد أيونات الأيدروچين الناتجة عن عملية تحلل الماء مع جزيئات ثانى أكسيد الكربون الذى يستمده النبات من الجو المحيط به ليكوّن جميع أنواع الجزيئات العضوية اللازمة لبناء الخلايا الحية، مبتدئًا بأبسطها، وهو سكر العنب (الجلوكوز) وغيره من أنواع السكر الأخرى، والنشويات (الكربوهيدرات)، منتهيًا إلى البروتينات، والزيوت، والدهون، وغير ذلك من مركبات الأحماض الأمينية، والأحماض النووية التى تكتب بها الشفرة الوراثية لكل كائن حى.

وبهذه العملية يختزن جزء من طاقة الشمس على هيئة روابط كيميائية تلعب الدور الرئيسى فيها أيونات الأيدروچين الموجودة فى الماء، بينما يستخدم الأكسچين المنطلق من الماء إلى الجو عن طريق عملية التمثيل الضوئى بواسطة بقية الكائنات الحية فى عملية التنفس، وهى عملية ينتج عنها أكسدة المواد العضوية فى الطعام (والمأخوذة أصلاً من النبات مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الحيوان) إلى ثانى أكسيد كربون وماء، وبذلك يسترجع الغلاف الغازى للأرض ثانى أكسيد

الكربون الذى أخذه منه النبات، كما يسترجع قدرًا من طاقة الشمس التى استفاد بها النبات على شكل حرارة ناتجة عن جميع الأنشطة التى تقوم بها الكائنات الحية، أو تتركها على هيئة بقايا وفضلات تتأكسد وتعود هى الأخرى إلى الجو.

من هنا يتضح أن الماء ضرورى لبناء أجساد كل الكائنات الحية، كما أنه ضرورى لمساعدتها على الاستمرار فى القيام بمختلف نشاطاتها ومظاهرها الحيوية.

رابعًا: أن الماء أعظم مذيب يعرفه الإنسان، ولذلك يشكل الوسط المذيب للعديد من العناصر والمركبات التى يقوم بنقلها من تربة وصخور الأرض إلى مختلف أجزاء النبات، ومن الطعام إلى مختلف أجزاء جسم كل من الإنسان والحيوان. وذلك بما له من درجة عالية من اللزوجة والتوتر السطحى، وخاصية شعرية فائقة.

خامسًا: أن الماء يشكل العنصر الأساسى فى بناء أجساد جميع الكائنات الحية، فقد ثبت بالتحليل أن نسبة الماء فى جسم الإنسان تتراوح بين حوالى ٦٠٪ و٧٢٪ فى الطفل، وبين ٥٤٪ و٦٢٪ فى الإنسان البالغ، وحوالى ٩٣٪ فى الجنين ذى الأشهر المحدودة، بينما يكون الماء أكثر من ٨٠٪ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من ٩٠٪ من أجساد العديد من النباتات والحيوانات.

سادسًا: أن جميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها المتعددة من التغذية إلى الإخراج ومن النمو إلى التكاثر لا تتم فى غيبة الماء، بدءًا من التمثيل الغذائى، وتبادل المحاليل بين الخلايا وبعضها البعض، وبينها وبين المسافات الفاصلة للخلايا، وذلك بواسطة الخاصية الشعرية للمحاليل المائية التى تعمل من خلال جدر الخلايا، وانتهاء ببناء الخلايا والأنسجة الجديدة مما يعين على النمو والتكاثر، وقبل ذلك وبعده التخلص من سموم الجسم وفضلاته عن طريق مختلف صور الإفرازات والإخراجات.

هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الماء من أدوار أساسية فى عمليات بلع الطعام، وهضمه، وتمثيله، ونقله، وتوزيعه، ونقل كلّ من الڤيتامينات، والهرمونات، وعناصر المناعة، ونقل الأكسچين إلى جميع أجزاء الجسم، وإخراج السموم والنفايات إلى خارج الجسم، وحفظ حرارة الجسم ورطوبته وما يقدم ذلك أو يترتب عليه من العمليات الحيوية، وعلى ذلك فلا يمكن للحياة أن تقوم بغير الماء

أبدًا، فمن الكائنات الحية ما يمكنه الاستغناء كلية عن أكسچين الهواء، ولكن لا يوجد كائن حي واحد يمكنه الاستغناء عن الماء كلية، فبالإضافة إلى منافعه العديدة وفى مقدمتها أنه منظم لدرجة حرارة الجسم، بما له من سعة حرارية كبيرة، ومنظم لضغط الدم، ولدرجات الحموضة، فإن فى نقصه تعطش الخلايا ويضطرب عملها، وتتيبس الأنسجة، وتتلاصق المفاصل، ويتجلط الدم ويتخثر، ويوشك الكائن الحى على الهلاك. ولذلك فإن أعراض نقص الماء بالجسم الحى خطيرة للغاية، فإذا فقد الإنسان على سبيل المثال ١٪ من ماء جسده أحس بالظمأ، وإذا ارتفعت نسبة فقد الماء إلى ٥٪ جف حلقه ولسانه، وصعب نطقه، وتغضن جلده، وأصيب بانهيار تام، فإذا زادت النسبة المفقودة على ١٠٪ أشرف الإنسان على الهلاك بالموت.

وفى المقابل فإن الزيادة فى نسبة الماء بجسم الكائن الحى عن القدر المناسب له قد تقتله، فالزيادة فى نسبة الماء بجسم الإنسان قد تسبب الغثيان، والضعف العام وتنتهى بالغيبوبة التى تفضى إلى الموت.

سابعًا: يغطى الماء فى زماننا الراهن حوالى ٧١٪ من مساحة سطح الأرض المقدرة بنحو ٥١٠ ملايين كيلومتر مربع، بينما تشغل مساحة اليابسة حوالى ٢٩٪ من تلك المساحة. والأرض هى أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذى تقدر كميته على السطح بحوالى ١,٤ بليون كيلومتر مكعب، بالإضافة إلى مخزون يقدر بمئات أضعاف هذا الرقم فى نطاق الضعف الأرضى، يخرجه لنا ربنا - تبارك وتعالى - بقدر معلوم مع ثورات البراكين.

ويتوزع أغلب الماء على سطح الأرض (حوالى ٢٢, ٩٧٪) فى البحار والمحيطات التى تغطى مساحة تزيد على ٣٦٢ مليون كيلومتر مربع، بمتوسط عمق يقدر بحوالى ٣٨٠٠ متر مما يعطى لبحار ومحيطات الأرض حجمًا يزيد قليلاً على ١٣٧٥ مليون كيلومتر مكعب من الماء المالح.

هذا بالإضافة إلى كم من الجليد يغطى قطبى الأرض، وقمم الجبال بسمك يصل إلى أربعة كيلومترات فى القطب الجنوبى وإلى ٣٨٠٠ متر فى القطب الشمالى، ويمثل كم الماء فى هذا الغطاء الجليدى حوالى (١٥, ٢٪) من مجموع الماء على سطح الأرض، والنسبة الباقية وتقدر بحوالى (٦٣, ٠٪) من مجموع ماء الأرض يمثل

أغلبها بالمخزون المائى فى صخور قشرة الأرض ما نسبته (٦١٣ , ٠٪) ويمثل الباقى (وتقدر نسبته بحوالى ٠١٧ , ٠٪) بمخزون البحيرات الداخلية، وكم الماء الجارى فى الأنهار والجداول، ورطوبة كل من الجو والتربة، التى تعين الأرض على الإنبات، وتلعب دورًا مهمًا فى تكوين السحب التى تدفع عن الأرض جزءًا كبيرًا من حرارة وأشعات الشمس بالنهار، كما ترد إلى الأرض معظم الدفء الذى تشعه صخورها إلى الجو بمجرد غياب الشمس.

وهذا التوزيع المعجز للماء على سطح الأرض لعب - ولا يزال يلعب - دورًا أساسيا فى تهيئة مناخ الأرض لاستقبال الحياة، فلولا هذه المساحات المائية والجليدية الشاسعة لاستحالت الحياة التى نعرفها على سطح الأرض؛ لأن درجة حرارة نطاق المناخ كان من الممكن أن تصل إلى أكثر من مائة درجة مئوية بالنهار، وأن تنخفض إلى ما دون المائة درجة تحت الصفر المئوى بالليل، وهو تباين لا تقوى عليه كل صور الحياة المعروفة لنا، ولكن شاءت إرادة الله ورحمته أن تحمينا من هذه المخاطر بواسطة الغلاف المائى للأرض الذى ينظم درجة حرارتها، وحرارة الهواء المحيط بها فى نطاق المناخ، وذلك بتكرار عمليات التبخير بكميات كبيرة من الماء (تقدر سنويًا بحوالى ٠٠٠ , ٣٨٠ كيلومتر مكعب)، وتكثيف هذا الكم الهائل من بخار الماء على هيئات السحاب والضباب والندى، وإنزاله إلى الأرض على هيئة المطر، والثلج والبرد، وما يصاحب ذلك من رعد وبرق، وما ينزل معهما من مركبات النيتروجين وغيره من العناصر التى تثرى تربة الأرض بما يحتاجه النبات من مركبات، وما يصاحب كل ذلك من إحياء للأرض بعد موتها، بتقدير من الخالق البارئ المصور ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ - ٣].

ثامنًا: الماء يساعد على حفظ درجات الحرارة فى البحار والمحيطات فى الحدود التى تعين الحياة البحرية على النشاط، وذلك باختلاط التيارات البحرية الدافئة والباردة، وبامتصاص جزء كبير من أشعة الشمس وبما تنتجه الأحياء البحرية من حرارة نتيجة لمختلف أنشطتها الحيوية، والعمل على إعادة توزيعها، وكذلك توزيع الحرارة الناتجة عن ثورات البراكين فوق قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحارها، وقبل ذلك وبعده وقاية الأحياء البحرية من مختلف التقلبات الجوية خاصة عندما تنخفض درجات الحرارة إلى ما دون الصفر المئوى، وهنا يلحظ كل

عاقل دور القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق والتى أعطت الماء عدداً من الخصائص الفيزيائية والكيميائية التى لا تتوافر لغيره من العناصر ومركباتها، وأبرزها قلة كثافة الماء عند تجمده مما يضطره إلى الطفو على سطح مياه البحار والمحيطات فى المناطق الباردة والمتجمدة بدلاً من الغوص إلى قيعانها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها، ويقوم الجليد الطافى على سطح الماء بدور العازل بين درجات حرارة الهواء الشديد البرودة من فوقه، والماء الدافئ نسبيًا من تحته وما فيه من حياة زاخرة.

هذا قليل من كثير مما حبا الله - تعالى - به الماء من صفات طبيعية وكيميائية فريدة، من أهمها قدرته الفائقة على إذابة أعداد كبيرة من المواد الصلبة والسائلة والغازية، وبناؤه الجزيئى ذو القطبية المزدوجة والمقاوم للتحلل والتأين، ودرجتا التجمد والغليان المتميزتان، والحرارة النوعية المرتفعة، والحرارة الكامنة العالية، واللزوجة والتوتر السطحى الفائقان، وقلة كثافته عند التجمد، وقدرته الكبيرة على الأكسدة والاختزال، وعلى التفاعل مع العديد من المركبات الكيميائية، وعلى تصدع التربة وشقها لمساعدتها على الإنبات،وبذلك هيأه الله - سبحانه وتعالى - للقيام بدوره الرئيسى فى أجساد كل أنواع الحياة النباتية والحيوانية والإنسية مما يعتبر معجزة كبرى من معجزات الخالق - سبحانه وتعالى - الذى أنزل فى محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق : ﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وجاء ذلك مباشرة بعد تقرير خلق السماوات والأرض بعملية فتق الرتق وهى من أعظم معجزات الخالق - سبحانه - فى إبداعه للكون. والخطاب فى مطلع الآية الكريمة موجه للذين كفروا، ولذلك ختمت بهذا الاستفهام التقريرى، التقريعى، التوبيخى : ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟.

وهذه حقائق لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى منتصف القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله بهذه الدقة العلمية المبهرة، والإيجاز المعجز، مع الشمول والإحاطة لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

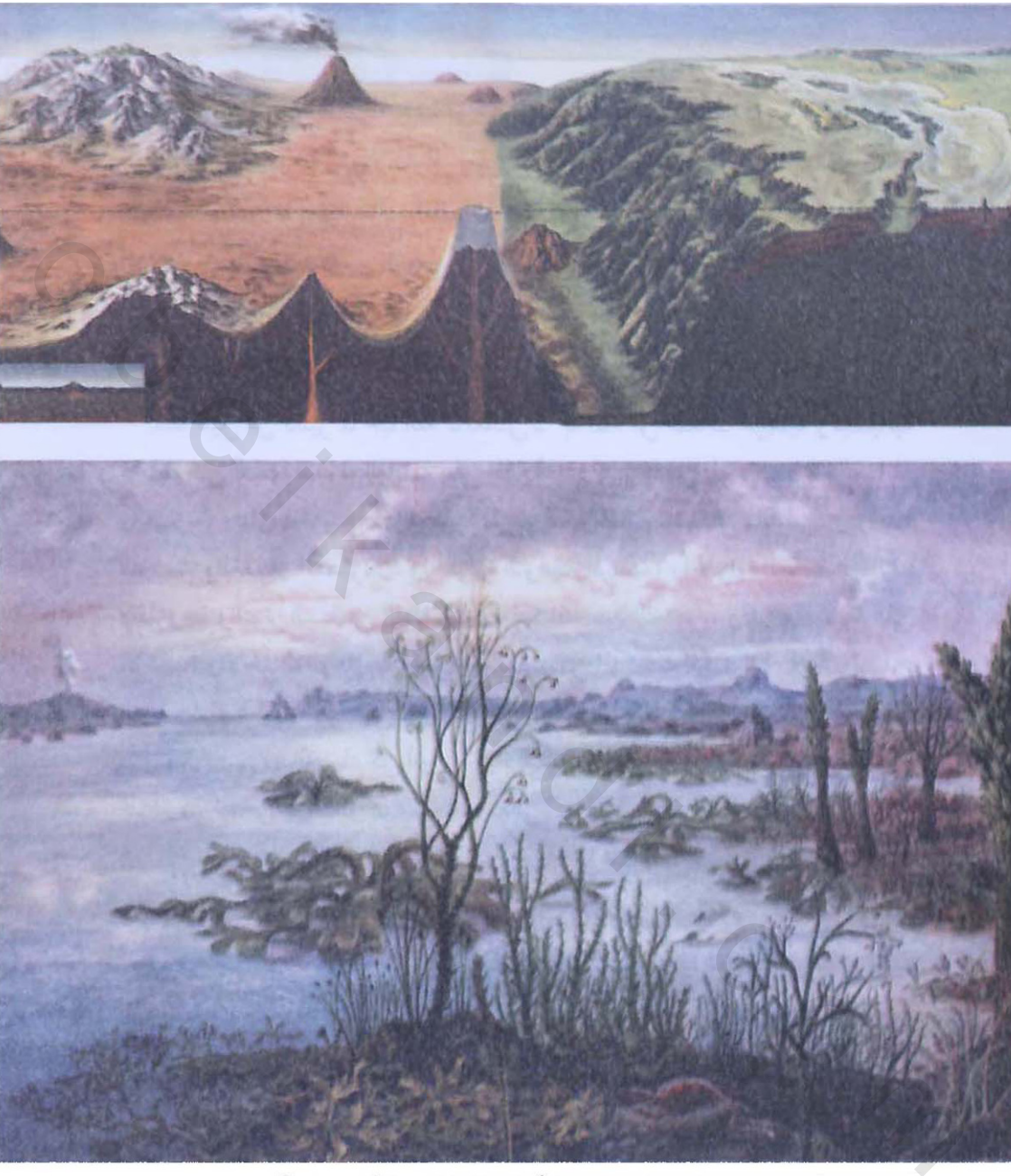

رسم تخطيطى لبعض أنواع النباتات الأرضية الأولية التى خلقت على سطح اليابسة لأول مرة مع بدايات العصر السيليورى (فى الفترة من ٤٤٠ مليون سنة مضت إلى ٤١٠ مليون سنة مضت).

٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿... وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

[فصلت: ١٠]

elkanalcom

﴿ ... وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾

[فصلت: ١٠]

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى الخمس الأول من سورة فصلت، وهى سورة مكية، وآياتها أربع وخمسون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لوصفها القرآن الكريم فى مطلعها بأنه كتاب فصلت آياته - أى ميزت لفظًا ومعنى - لتناولها كلام الله وهدايته إلى الثقلين بأسلوب معجز فى بيانه، ونظمه، وبلاغته، ومحتواه مشتملاً قضايا الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات.. وهذه القضايا هى إما من صميم الغيب المطلق الذى لا سبيل للإنسان فى الوصول إليه إلا ببيان من الله - تعالى - بيانًا ربانيًا خالصًا لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية كقضايا العقيدة، أو هى أوامر ربانية خالصة لا يصح للبشر أن يتدخلوا فيها كقضايا العبادة، والله - تعالى - يحب أن يعبد بما أمر، أو هى ضوابط للسلوك والمعاملات، والإنسان كان عاجزًا دومًا عن أن يضع لنفسه بنفسه ضوابط لسلوكه وتشريعات لمعاملاته، ومن هنا كان تميز القرآن الكريم فوق غيره من الكتب، ومن ثم تميز هذه السورة المباركة التى نحن بصددها، وتميز الإسلام العظيم فوق غيره من الأديان.

عرض موجز لسورة فصلت

تبدأ سورة فصلت بالحرفين المقطعين «حم»، ولذا تسمى أحيانا باسم حم السجدة؛ لأن بها سجدة تلاوة واحدة. والحروف المقطعة التى افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، والتى تضم نصف أسماء حروف الهجاء الثمانية والعشرين، تعتبر سرًا من أسرار القرآن الكريم التى لا يعلمها إلا الله - تعالى، وإن حاول بعض المفسرين التعرض لشرح دلالات لها.

وبعد هذا الاستفتاح تحدثت السورة المباركة عن الوحى بالقرآن الكريم الذى تصفه بقول الحق ـ تبارك وتعالى :

﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت : ١ ـ ٤].

وتؤكد السورة الكريمة هذه الحقيقة فى مقام آخر منها يقول فيه الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ... ﴾ [فصلت : ٤٤].

وتشير سورة فصلت إلى كتاب الله فى عدد آخر من آياتها، مؤكدة أنه كلام الله الخالق، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتشير إلى كتاب موسى عليه السلام واختلاف قومه فيه، وتلفت النظر إلى أن القرآن الكريم هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو فى آذان الذين لا يؤمنون به وقر وهو عليهم عمى . . . !!!

وتتحدث السورة عن مواقف المعرضين عن كتاب الله، وعن انغلاق قلوبهم دون هدايته، ورفض أسماعهم للحق الذى جاء به، وعجز طبائعهم عن موافقة دعوته إلى توحيد الله ـ الخالق ـ والاستقامة على أوامره، واجتناب نواهيه، والانصياع لتحذيره المتكرر من أخطار الوقوع فى الكفر بالله ـ تعالى ـ ، أو الشرك به، أو منع شرائعه أن تقام.

وقارنت السورة الكريمة بين الموقف الجاحد لهؤلاء الكفار والمشركين وما سوف ينالهم يوم القيامة من الويل والثبور، وبين موقف المؤمنين الذين سوف يعطيهم ربهم أجرًا غير ممنون.

وفى محاجة ملجمة للكافرين، استشهدت سورة فصلت على وجود الله ـ تعالى ـ وعلى ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته، وعلى طلاقة قدرته بخلق الأرض فى يومين ـ أى على مرحلتين ـ ، وبخلق الجبال، ومباركة الأرض، وتقدير أقواتها فى أربعة أيام ـ أى أربع مراحل ـ من أجل تهيئتها للعمران، والمرحلتان الأوليان داخلتان فى المراحل الأربع التالية، أو فى المرحلتين التاليتين اللتين أتم الله ـ تعالى ـ فيهما بناء الكون، وجعل السماوات سبعًا، وزين السماء الدنيا منها بالنجوم

وحفظها بها ؛ وذلك لأن خلق السماوات قد تم فى نفس الوقت الذى تم فيه خلق الأرض، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك تعالى ـ : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]. .

وبعد استعراض هذه الآيات الكونية المبهرة، تنذر السورة جميع المعرضين عن دين الله، والكافرين به بعقاب من مثل عقاب أقوام عاد وثمود، وعقاب أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، وفصلت السورة شيئًا مما حدث لكل منهم، وكيف نجَّى الله المتقين من بينهم.

واستشهدت السورة الكريمة ببعض مشاهد العذاب فى الآخرة، ومن أخطرها أن الله ـ تعالى ـ سوف يُنطق سمع، وأبصار، وجلود العصاة من عباد الله، لتشهد عليهم بما كانوا يعملون، وتشير السورة إلى ما سوف يدور من حوار بين هؤلاء الخاطئين وجوارحهم التى تشهد على جرائمهم، وفى ذلك يقول الحق ـ عز من قائل:

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢١].

وتحذر السورة الكريمة الكافرين من الجحود بآيات الله، والانصراف عن الاستماع إلى القرآن الكريم، ومحاولة اللغو فيه إذا قرئ عليهم، وتهددهم بعذاب شديد، يوقفهم موقف الندم والاعتذار، ساعة لا ينفع الندم ولا يجدى الاعتذار فتقول:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٦ ـ ٢٧].

وتتحدث سورة فصلت عن شيء من مبشرات المؤمنين الذين آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً، واستقاموا على منهج الله، بتنزل الملائكة عليهم فى الدنيا وفى الآخرة، وفى لحظات الموت وسكراته، وحشرجة الصدر وضيقه، مطمئنة إياهم برضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم وغفرانه لهم، ورحمته بهم، وبالنعيم الذى ينتظرهم فتقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾

[فصلت: ٣٠ـ ٣٢].

وتقارن السورة بين طيب حال المؤمنين فى الدنيا والآخرة، وسوء حال الكافرين والمشركين فى الدارين، وتتحدث عن شيء من أخلاق الدعاة إلى الله، وأساليبهم فى الدعوة إليه، وتمايز بين الخير والشر، وبين الحسنة والسيئة، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[فصلت: ٣٣ـ ٣٥].

وتُثَبِّتُ الآيات رسول الله ﷺ بحقيقة أن ما يقال له من الكافرين والمشركين قد قيل للرسل من قبله؛ وأن الله ـ تعالى ـ الذى هو صاحب المغفرة، هو فى الوقت نفسه ذو عقاب أليم. وتؤكد السورة أن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها... وأن الله ـ تعالى ـ ليس بظلاَّم للعبيد، فهو أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأنه ـ تعالى ـ يرد إليه علم الساعة، وعلم كل شيء... !!!

وتنتهى السورة إلى الحديث عن شيء من طبائع النفس الإنسانية، وتختتم بهذا الوعد الإلهى القاطع بأن الله ـ تعالى ـ سوف يكشف للإنسان ـ فى مستقبل يأتى بعد

زمن الوحى - من الحقائق العلمية فى آفاق الكون وفى داخل النفس الإنسانية والجسد البشرى، ما يؤكد صدق كل ما جاء فى كتاب الله من الإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى كل ما يتعلق بالإنسان ومراحل خلقه، وبناء جسده، وحديث نفسه، وإذا ثبت سبق القرآن بالإشارة إلى تلك الحقائق من قبل أن تصل إلى علم الإنسان بعدد متطاول من القرون، وثبت صدق القرآن الكريم فى الإشارة إليها بقدر من الدقة والشمول والإحاطة التى لم يصل إليها علم الإنسان بعد فى زمن التقدم العلمى والتقنى المذهل الذى نعيشه. . . إذا ثبت كل ذلك أصبحت تلك الإشارات الكونية والإنسانية فى كتاب الله من أعظم الآيات الدالة على أنه الحق، والدالة على صدق حديثه عن الغيب، وعن الدين بركائزه الأساسية، وصدق إخباره عن الأمم السابقة، وعن البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وكان الشك فى إمكان البعث هو أحد الحجج الرئيسية لكفر الكافرين، وإعراضهم عن الإيمان بدين الله القويم، ولذلك تختتم السورة بقول الحق - تبارك وتعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾

[فصلت: ٥٣ - ٥٤].

من الآيات الكونية فى «سورة فصلت»

من الآيات الكونية التى استشهدت بها السورة الكريمة على طلاقة القدرة الإلهية:

خلق الأرض فى يومين - أى على مرحلتين - ، وخلق الجبال، ومباركة الأرض بتهيئتها للعمران، وتقدير أقواتها فيها فى أربعة أيام - أى أربع مراحل - وإتمام بناء الكون، وجعل السماوات سبعًا، والأرضين سبعًا، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم، وجعلها حفظًا لها، وتبادل كلّ من الليل والنهار، وحركة كلّ من الشمس والقمر، واهتزاز الأرض وربوها - أى انتفاخها وارتفاعها إلى أعلى - عند إنزال الماء عليها، ودلالة ذلك الإحياء للأرض على إمكان البعث وإحياء الموتى.

وكل واحدة من هذه القضايا لا يوفيها حقها مقال منفصل، ولذا فإننى سوف أقتصر هنا على قضية واحدة منها ألا وهى قضية تقدير الأقوات فى الأرض على أربع مراحل متتالية، وقبل الدخول فى هذا الموضوع لا بد من التعرض للدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة ولأقوال عدد من المفسرين فيها.

الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة

(١) (بارك): (البركة) هى ثبوت الخير الإلهى فى الشىء بنمائه وزيادته بغير أسباب مدركة؛ و (المبارك) هو ما فيه ذلك الخير، ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يُحَسُّ، وعلى وجه لا يُحْصَى، ولا يُحْصَر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: إنه (مبارك)، وأن فيه (بركة)؛ و (بارك) الشىء أى أودع فيه الخير الإلهى؛ ويقال: (بارك) الله لك، وفيك، وعليك، و (باركك) أى أودع خيره فيك؛ و(تبارك) الله أى اختص تعالى بكل خير؛ ويقال: (تبرك) بالشىء أو بالفرد من البشر أى تيمن به.

(٢) (قَدَّر): يقال فى العربية (قَدَّرَ) أو (قَدَرَ) الشىء (يقدره) (تقديرًا) أى حدد كميته؛ و (القدر) كمية الشىء أو مبلغه، و (مقدار) الشىء للشىء المقدر له أو به وقتًا كان أو زمنًا أو كيلاً هو كميته؛ يقال: (قدرته) و (قدرته). ويقال: (قَدَّره) أى أعطاه (القدرة) وذلك مثل قولك: (قَدَّرنى) الله على كذا أى قوانى عليه؛ و(تقدير) الله الأشياء على وجهين: أحدهما بإعطاء القدرة، وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، والثانى بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة؛ وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

و (التقدير) من الإنسان على وجهين أحدهما: التفكير فى الأمر بحسب نظر العقل وبناء الأمر عليه وذلك محمود؛ والثانى: أن يكون بحسب التمنى والشهوة

وذلك مذموم يقول فيه الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدثر : ١٨ ـ ١٩].

(٣) (أقوات) : (القوت) هو كل ما (يُقْتَاتُ) به أو ما يمسك الرمق : أى ما يقوم به بدن الإنسان ـ وغيره من الكائنات الحية ـ من الطعام، وجمعه (أقوات) وفعله (قات) أو (قوت) فيقال : (قاته) (يقوته) (قوتا) أى أطعمه قوته، أو (أقاته) (يقيته) (قوتًا) أى جعل له ما يقوته، أو (استقاته) (يستقيته) (استقاتة) أى سأله (القوت) ويقال : (قُتُّهُ) (فاقتات)؛ وهو (يَتَقَوَّتُ) بكذا أو (يقتات) على كذا.

كذلك يقال : (أقات) على الشىء اقتدر عليه ؛ و (المقيت) هو القائم على الشىء يحفظه ويقيته، وقد يقصد به المقتدر والحافظ والشاهد، و (المقيت) من أسماء الله الحسنى ومن معانيه خالق الأقوات وموزعها على الخلائق.

(٤) (أيام) : (اليوم) فى العربية وجمعه (أيام) الفترة من طلوع الشمس إلى غروبها أو ما يعبر عنه بالنهار وهو فترة النور بين ليلين متتاليين أو قد يعبر بلفظة (اليوم) عن فترتى النهار والليل معًا وهو ما يعرف باليوم الكامل، أو بيوم الأرض الشمسى، ويمثل الفترة التى تتم فيها الأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، ويعبر عنها بالفترة الزمنية بين شروقين متتاليين أو بين غروبين متتاليين للشمس ويساوى ـ فى زماننا ـ أربعًا وعشرين ساعة كاملة.

ويقال فى العربية : (من أول يوم) أى من أول أيام تاريخ محدد، وقد يعبر بلفظ (اليوم) عن يوم محدد فى السنة أو فى الشهر أو فى الأسبوع، وقد يعبر به عن الشدة التى يمر بها الفرد أو الجماعة من الناس وذلك مثل قولهم : (يوم كيوم عاد) أو (يوم) من (أيام) الدهر، وقد يعبر به عن واقعة محددة فى التاريخ (كيوم الفتح) ، أو أيام الآخرة، أو أيام الله التى لا يعرف مداها إلا هو ـ سبحانه وتعالى ـ وقد يعبر (باليوم) عن مدة من الزمان أيّا كان طولها، أو عن فترة من الفترات أو مرحلة من المراحل، بغض النظر عن الزمن الذى استغرقته.

وقد استخدمت لفظة (يوم) فى القرآن الكريم بهذه المعانى كلها.

(٥) (سواء) : أى يعدل فى الحكم بين الفرقاء، (فالسِّواء) العدل، وفعله (سوى) (يسوى) (تسوية) و (سواء) أى عدلاً، و(ساوى) (يساوى) (تسوية) أى عادل؛ وتسوية الشيء جعله سواء، فالمساواة هى المعادلة المعتبرة فى كل شيء، أو يقال : قسم الشيء بينهما بالسوية أى بالعدل، و (سوى) و (سواء) الشيء وسطه أو غيره؛ وتأتى بمعنى العدل، (كما تأتى بالفتح والكسر والضم للسين ؛ فإذا ضممت السين أو كسرتها قصرت، وإذا فتحتها مددت) ؛ يقال : مكانا (سُوى) و(سِوى) و(سواء) أى عدل ووسط ؛ و (سُواك) و(سِواك) و(سَوَائك) أى غَيرك.

يقال : هما فى الأمر (سواء) أو (سواءان)، وهم (سواء) أو (أسواء) أو (سواسية).

ويقال : (استوى) الشيء بمعنى اعتدل والاسم (السواء) ؛ و (السِّىُّ) و(السَّوِىُّ) صفة لكل ما يصان من الإفراط والتفريط من حيث القدر والكيفية وجمعه (أسواء).

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت : ٩ ـ ١٠].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «هذا إنكار من الله ـ تعالى ـ على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، المقتدر على كل شيء ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ . أى نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ، ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله، تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الاعراف : ٥٤] ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف،

كما قال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] الآية، فأما قوله، تعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، ففى هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص . . . ، وخلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن فى يومين آخرين، ثم دحا الأرض ؛ ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام، وما بينها فى يومين آخرين، فذلك قوله تعالى : ﴿دَحَاهَا﴾ ، وقوله : ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام وخلق السماوات فى يومين».

* وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما نصه : «﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ بتحقيق الهمزة الثانية، وتسهيلها، وإدخال ألف بينها ـ بوجهيها ـ وبين الأولى، وتركه ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ . . و﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ شركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ﴾ مالك ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم وهو ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون وتغليبا للعقلاء».

«﴿وَجَعَلَ﴾ مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة ـ الذى ـ للفاصل الأجنبى ﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت تثبتها ﴿مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بكثرة المياه والزروع والضروع ﴿وَقَدَّرَ﴾ قَسَمَ ﴿فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ للناس والبهائم فى تمام ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أى الجعل وما ذكر معه . . ﴿سَوَاءً﴾ منصوب على المصدر أى استوت الأيام الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ عن خلق الأرض بما فيها».

وجاء فى التعليق بالهامش ما يلى :

«قوله ـ تعالى : ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ ، ثم قوله بعد ذلك : ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ثم قوله : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، هذا تفصيل لمثل قوله تعالى فى سورة (ق) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أى : تعب

وإعياء، فتم خلق الأرض وتقدير أقواتها فى مقدار أربعة أيام، وتم خلق السماوات فى مقدار يومين، كل ذلك بلا ترتيب زمنى؛ لأن (ثم) فى مثل قوله ـ تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ لا تفيد فى حق الله ـ تعالى ـ ترتيبًا زمنيًا؛ لأنه ـ تعالى ـ لا يجرى عليه زمان، فكان خلق السماوات والأرض وما بينهما فى مقدار ستة أيام من غير تحديد ولا تعيين على الصحيح».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه: «إنه يذكر حقيقة خلق الأرض فى يومين، ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض، يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.. وأنتم تكفرون به وتجعلون له أندادًا، وهو خلق هذه الأرض التى أنتم عليها، فأى تبجح وأى استهتار وأى فعل قبيح؟!»

«وما هذه الأيام: الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض، والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسى وقدر فيهما الأقوات، وأحل فيها البركة، فتمت بهما الأيام الأربعة؟»

«إنها بلا شك أيام من أيام الله التى يعلم هو مداها، وليست من أيام هذه الأرض.. والأيام التى خلقت فيها الأرض أولاً، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات، هى أيام أخرى، مقيسة بمقياس آخر، لا نعلمه، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة».

«وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشرى أنها هى الأزمان التى مرت بها الأرض طورًا بعد طور، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التى نعلمها.... ».

«و﴿بَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.. وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامى فى هذه الأرض وبعض ما خبأه الله فى جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها.. فأما اليوم بعدما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته فى الأرض ومن أقواتها التى خزنها فيها على أزمان طويلة، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف فى أذهاننا».

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن - على كاتبه من الله الرضوان - ما نصه : «﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أوجدها فى مقدار يومين من أيام الدنيا . وقيل : اليوم منهما كألف سنة من أيامنا» .

«والآية تنديد بالمشركين ، لتماديهم فى الشرك مع ظهور الدلائل الموجبة للإيمان بوحدانيته - تعالى - وكمال قدرته . ﴿ أَندَاداً ﴾ أمثالاً من مخلوقاته تعبدونها . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ مِن فَوْقِهَا ﴾ لئلا تميد وتضطرب ﴿ وبَارَكَ فِيهَا ﴾ جعلها مباركة قابلة للخير ، كالإنبات وإخراج ما ينفع الناس . ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ جعل أقوات أهلها التى يحتاجون إليها فى معايشهم على مقادير معينة ، بحيث جعل فى كل قطر ما يناسب أهله ؛ ليكون الناس محتاجًا بعضهم إلى بعض فيما يرتفقون به . وهو سبب عمارة الأرض ونظام العالم . ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أى خلق ما فى الأرض فى تمام أربعة أيام ﴿ سَوَاءً ﴾ مستوية كاملة . مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لـ ﴿ أَيَّامٍ ﴾ ، أى استوت سواء أى استواء ، وقيدت به لدفع توهم التجوز بإطلاقها على ما دونها بقليل ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أى قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها ، المحتاجين إليها من المقتاتين . فمدة خلق كلٍّ من الأرض وما فيها مقدار يومين . وتمام المدتين أربعة أيام كاملة» .

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه : «قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين : عجبًا لكم ! تكفرون بالله الذى خلق الأرض فى يومين ، وأنتم - مع هذا - تجعلون له شركاء متساوين معه ، ذلك الخالق للأرض مالك العوالم كلها ومربيهم . وجعل فى الأرض جبالاً ثابتة من فوقها لئلا تميد بكم ، وأكثر فيها الخير وقدر فيها أرزاق أهلها ، حسبما تقتضيه حكمته ، كل ذلك فى يومين ، وأنتم - مع هذا - تجعلون له شركاء ، وقدر كل شىء لا نقص فيه ولا زيادة ، هذا التفصيل فى خلق الأرض وما عليها بيان للسائلين» .

وجاء فى التعليق الهامشى ما يلى : «وحدات الزمن التى يستخدمها الناس مرتبطة بالأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس ، فإذا ما غادر أحد الأرض إلى جرم سماوى اختلفت هذه الوحدات طولاً أو قصراً . والآيات الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة وإلى أن الزمن نسبى . .

* وذكر صاحب صفوة التفاسير - جزاه الله خيراً - ما نصه : «﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب أى كيف تكفرون بالله وهو الإله العلى الشأن القادر على كل شىء، خالق الأرض فى يومين؟ ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم . . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ أى جعل فى الأرض جبالاً ثوابت لئلا تميد بالبشر ﴿ وبَارَكَ فِيهَا ﴾ أى أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه والزروع والضروع ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أى قدر أرزاق أهلها ومعاشهم . قال مجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أى فى تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها» .

أيام الخلق الستة فى منظور العلوم الكونية

يرى أهل العلوم المكتسبة مراحل خلق الكون الست حسب الترتيب التالى والله - تعالى - أعلم بخلقه :

(١) **مرحلة الرتق** : وهى مرحلة الجرم الأولى الذى بدأ منه خلق السماوات والأرض، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن عمره يرجع إلى حوالى الأربعة عشر بليونًا من السنين .

(٢) **مرحلة الفتق (مرحلة الدخان)** : وهى مرحلة انفجار الجرم الأولى وتحوله إلى سحابة من الغاز المكون من اللبنات الأولية للمادة، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن هذا الحدث قد استغرق حوالى الأربعمائة ألف سنة بعد عملية الانفجار العظيم، وهى مرحلة تخلق العناصر فى السماء الغازية عبر تكون نويات غازى الهيدروجين والهيليوم وبعض نويات الليثيوم، كما يعتقدون أن أول النجوم تكون بعد حوالى الثلاثمائة مليون سنة بعد عملية الانفجار العظيم وأن أول المجرات تكون بعد بليون سنة تقريبًا، تلى ذلك مرحلة تخلق كل من الأرض وباقى أجرام السماء بانفصال دوامات من السحابة الدخانية الأولى وتكثفها على ذاتها بفعل الجاذبية .

(٣) مرحلة الدحو: أى مرحلة دحو الأرض وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية وذلك بإنزال الحديد عليها، واندفاعه إلى جوفها وانصهاره وانصهار مادة الأرض الأولية، وتمايزها إلى سبع أرضين، أولها، الغلاف الصخرى للأرض، ثم تصدع ذلك الغلاف وبدء تحرك ألواحه، وتكون كلّ من القارات وقيعان المحيطات، وبدء دورات كلّ من الماء، والصخور، وتبادل القارات والمحيطات، وشق الأودية والفجاج والسبل، والتعرية، وتسوية سطح الأرض، وتكون التربة، واختزان المياه تحت السطحية.

(٤) مرحلة تكون الجبال. عن طريق تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وتصادمها مع بعضها البعض:

(٥) مرحلة خلق الحياة النباتية والحيوانية من أبسط صورها إلى أكثرها تعقيداً ويعتقد علماء الأرض أن هذه الفترة قد استغرقت ٣,٨ بلايين من السنين ازدهرت خلالها صور الحياة فى البحار والمحيطات، ثم على اليابسة منذ (٤٤٠) مليون سنة مضت.

(٦) خلق الإنسان منذ حوالى مائة ألف سنة علي أكثر تقدير.

ويقدر عمر الكون بحوالى ١٤ بليون سنة، بينما يقدر عمر أقدم صخور الأرض بنحو ٤,٦ بليون سنة، وهو نفس العمر الذى تم التوصل إليه بتحليل صخور وتراب سطح القمر وصخور العديد من النيازك التى سقطت على الأرض، والفارق الكبير بين العمرين المقدرين لكل من الأرض والسماء- وقد خلقا فى لحظة واحدة- سببه أن صخور الأرض تدخل فى دورات عديدة من التيبس والانصهار، وأن العمر المقدر لها حاليًا هو عمر لحظة تيبس صخور قشرتها فى آخر دورة من هذه الدورات، وليس عمر تكون ذرات عناصرها، وعمر تيبس قشرة الأرض لا يشمل أيًا من مراحل الأرض الابتدائية، ولا مراحل تخلق العناصر التى كونت أرضنا الابتدائية وما أتبع ذلك من أحداث.

وتشير الآيات القرآنية التى تحمل الأرقام (٢٩) من سورة البقرة، و (٩-١٢) من سورة فصلت، إلى سبق خلق الأرض لعملية تسوية السماء الدخانية الأولية إلى

سبع سماوات، ويبدو أن المقصود هنا بالسبق هو خلق عناصر الأرض، والذى تلاه تجميع تلك العناصر على هيئة الأرض الابتدائية والتى تم رجمها بوابل من النيازك الحديدية، وتمايزها إلى سبع أرضين، ثم دحوها وتكوين أغلفتها الغازية والمائية والصخرية وتشكيلها إلى صورتها الحالية؛ وذلك لأن خلق السماوات والأرض عمليتان متلازمتان، ولا يمكن لإحداهما أن تنفصل عن الأخرى.

تقدير أقوات الأرض فى منظور العلوم الكونية

الأرض هى ثالث الكواكب بعدًا عن الشمس، وهى تجرى حول هذا النجم فى فلك بيضاوى قليل الاستطالة (إهليلجى) بسرعة تقدر بنحو ٣٠ كيلومترًا فى الثانية، لتتم دورتها هذه فى سنة شمسية مقدارها ٣٦٥,٢٥ يوم تقريبًا، وتدور حول نفسها بسرعة مقدارها نحو ٣٠ كيلومترًا فى الدقيقة، لتتم دورتها هذه فى يوم مقداره ٢٤ ساعة تقريبًا، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول التى تتبادل بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها ٦٦,٥ درجة تقريبًا، ويعزى للسبب نفسه هبوب الرياح، وهطول الأمطار، وفيضان الأنهار، وتتابع الدورات الزراعية بأمر من الله ـ تعالى.

ويقدر متوسط طول المسافة بين الأرض والشمس بنحو ١٥٠ مليون كيلومتر، وهذه المسافة التى حددتها كتلة الأرض بتقدير من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ تلعب دورًا مهمًا فى تقدير الأقوات فى الأرض؛ وذلك لأن كمية الطاقة التى تصل من الشمس إلى كل كوكب فى مجموعتها تتناسب تناسبا عكسيا مع بُعد الكوكب عن الشمس، وكذلك تتناسب سرعة جرى الكوكب فى مداره حولها. والشمس هى المصدر الرئيسى لجميع صور الطاقة الأرضية، ومن هنا تتضح الحكمة البالغة من تحديد كلٍّ من كتلة الأرض ومتوسط بعدها عن الشمس، فقد قدرت الطاقة التى تشعها الشمس من كل سنتيمتر مربع على سطحها بنحو عشرة أحصنة ميكانيكية، يصل إلى الأرض منها جزء من بليونى جزء من هذه الطاقة الهائلة التى تشكل مصدرًا مهمًا من مصادر أقوات الأرض بالقدر المناسب لنوعية الحياة الأرضية.

فلو كانت الأرض أقرب قليلاً إلى الشمس لكانت كمية الطاقة التى تصلها محرقة لجميع صور الحياة على سطحها، ومبخرة لمياهها، ومخلخلة لغلافها الغازى، ولو كانت أبعد قليلاً لتجمدت مياهها ولتوقفت الحياة على سطحها. ويرتبط بِبُعد الأرض عن الشمس بقية أبعاد هذا الكوكب. ويقدر حجم الأرض بنحو مليون كيلومتر مكعب، ومتوسط كثافتها بنحو ٥,٥٢ جم/ سم^{3}، وعلى ذلك تقدر كتلتها بنحو ستة آلاف مليون مليون طن، وهذه الأبعاد قد حددها ربنا- تبارك وتعالى- بدقة بالغة، فلو كانت أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً ما كانت صالحة للحياة الأرضية.

وللأرض مجال جاذبية مكنها من الاحتفاظ بغلافها الغازى، ولو فقدته جزئيّا لاستحالت الحياة على الأرض، وقد بدأت الأرض بكومة من الرماد، ثم رجمت بوابل من النيازك الحديدية والنيازك الحديدية الصخرية، والصخرية- والتى تحوى كثيراً من العناصر المعروفة لنا- والتى لا تزال تصل إلى الأرض بآلاف بل بعشرات الآلاف من الأطنان سنويا، وهذه العناصر وإنزالها إلى الأرض بأقدار معلومة من صور تقدير الأقوات فيها.

ثم مرت الأرض بمرحلة الدحو، وهو إخراج كل من أغلفتها المائية والغازية والصخرية، وغمرتها المياه بالكامل. وبدأت عملية الدحو بتصدع الغلاف الصخرى للأرض واندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر تلك الصدوع، وعبر فوهات البراكين، ومن ثم بدأت عملية تحرك ألواح الغلاف الصخرى للأرض، والتى نتج عنها تكون الجزر البركانية فى وسط ذلك المحيط الغامر، ثم أخذت تلك الجزر البركانية فى التدافع تجاه بعضها البعض لتكون اليابسة بسلاسلها الجبلية الناتجة عن تصادم تلك الألواح الصخرية، وبدأت دورة التعرية تفتت صخور الأرض لتكون التربة، وبدأت دورات الصخور، والمياه، وتكون القارات وتفتتها حتى أصبحت الأرض مهيأة لاستقبال الحياة.

وبما أن عمر أقدم صخور الأرض يقدر بنحو ٤,٦٠٠ مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة الأرضية يقدر عمره بنحو ٣,٨٠٠ مليون سنة، فإن إعداد الأرض لاستقبال الحياة قد استغرق ما لا يقل عن ثمانمائة مليون سنة.

وقد خلق الله ـ تعالى ـ الحياة الباكرة فى مياه البحار والمحيطات؛ لأنها كانت الوسط الذى يحوى قدرًا من الأملاح المذابة التى حملتها الأمطار والسيول والأنهار من اليابسة إلى قيعان البحار والمحيطات، وفى هذه الأثناء كانت صخور اليابسة تتفتت لتكوين التربة، وكانت مياه الأمطار تختزن فيها فى تهيئة حكيمة لاستقبال الحياة الأرضية.

ومن حكمة الله البالغة فى الخلق أن النبات كان سابقًا فى وجوده على الحيوان لأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه القدرة على صناعة غذائه بعملية التمثيل الضوئى مستفيدًا من طاقة الشمس وغازات الجو ومياه ومعادن الأرض، أما الحيوان فيعتمد فى غذائه على النبات أو على افتراس غيره من الحيوان إذا كانت له القدرة على ذلك.

وأقدم أثر للحياة على اليابسة لا يتعدى عمره ٤٤٠ مليون سنة، وقد بدأ بالنباتات الأرضية التى عمرت الأرض وسادت سيادة هائلة مما ساعد على تكوين راقات الفحم من بقاياها فى عصر سمى باسم «عصر الفحم»، وامتد من حوالى ٣٦٠ مليون سنة مضت إلى نحو ٣٩٠ مليون سنة مضت، واستمرت الحياة الأرضية فى الازدهار حتى اكتملت بخلق العديد من أنواع الحياة النباتية والحيوانية، ولعب كل نوع منها دورًا مهمًا فى استقبال المراحل التالية عليه، كما لعبت بقاياها دورًا أهم فى تكوين كلّ من النفط والغاز، ولعبت عوامل التعرية والحركات البانية للجبال دورها فى تمهيد الأرض وتهيئتها لاستقبال هذا المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان، والذى لا يكاد أقدم أثر له على الأرض أن يتعدى المائة ألف من السنين.

فسبحان الذى خلق الأكوان، ومنها الأرض، وهيأها لاستقبال هذا المخلوق المكرم بهذه المراحل المتطاولة من الخلق، وهو ـ تعالى ـ القادر على أن يقول للشىء كن فيكون. وسبحان الذى بارك الأرض، وقدر فيها أقواتها فى أربع مراحل متتالية : ثم قال ـ عزَّ من قائل ـ معاتبًا الكافرين والمشركين من عباده : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾

[فصلت : ٩ ـ ١٠].

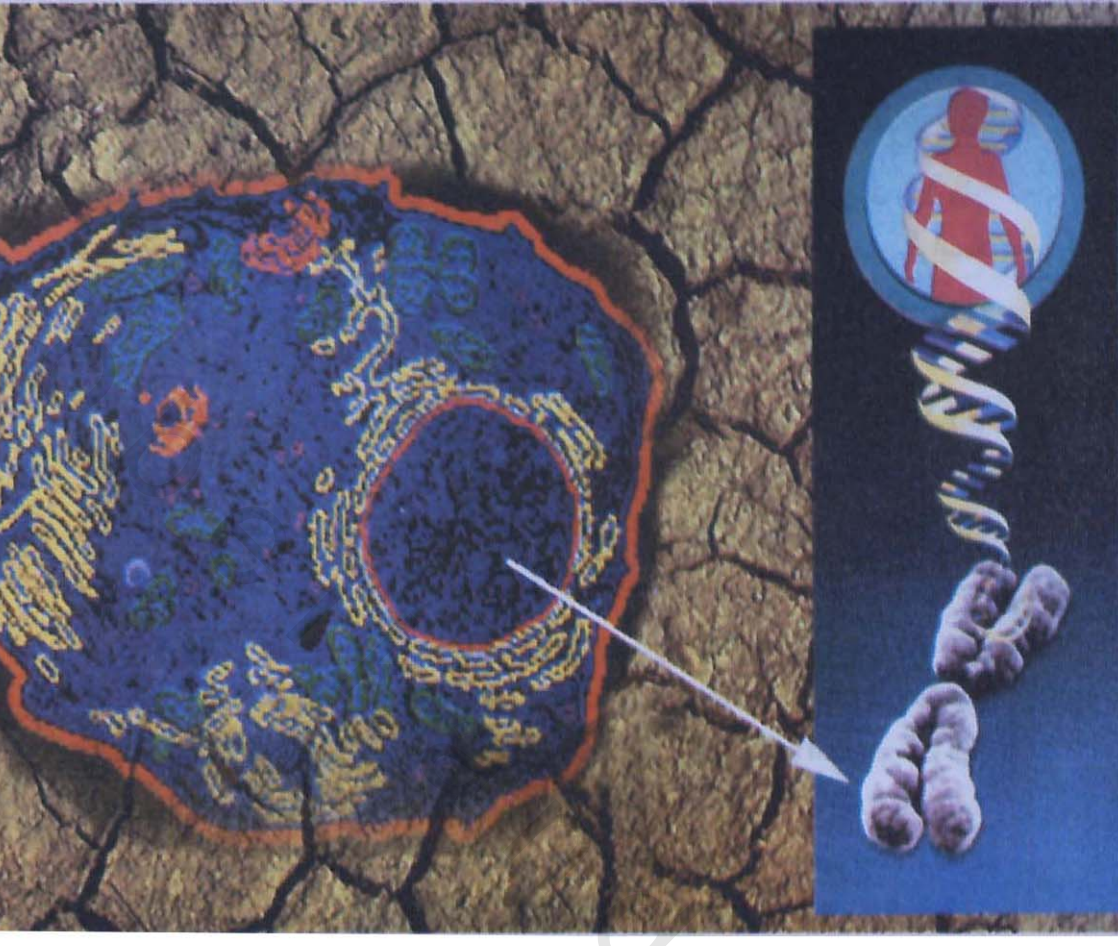

رسم تخطيطى لإحدى خلايا جسم الإنسان على خلفية من الطين اليابس المتشقق يوضح تعقيد بناء هذه الخلية الحية، ومن أعقد وأعجب ما فيها الشفرة الوراثية المكتوبة بالحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين ومكوناته والتى تشكل الصبغيات التى يرى فى خارج الخلية واحد منها. وعدد الصبغيات فى نواة الخلية يحدد كل نوع من أنواع الحياة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا
زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

[الذاريات: ٤٩]

beikarci.com

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

[الذاريات : ٤٩]

هذه الآية الكريمة جاءت فى الخمس الأخير من سورة الذاريات، وهى سورة مكية، وعدد آياتها ستون بعد البسملة، ويدور محورها الرئيسى حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها التى جاءت بها هذه السورة المباركة ما يلى :

(١) الإيمان بالله ـ تعالى ـ رب السماء والأرض، إلهًا واحدًا أحدًا، فردًا صمدًا، بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، وتنزيهه ـ سبحانه وتعالى ـ تنزيهًا كاملاً عن كل وصف لا يليق بجلاله.

(٢) اليقين بالبعث بعد الموت، وبالجزاء فى الآخرة، على الرغم من اختلاف الناس بشأنهما؛ لأنه لا يُصْرَفُ عن الإيمان بحتميتهما إلا صاحب هوى أو جنون، أو استكبار فى الأرض.

(٣) القبول بحقيقة النار وعذابها، وبأنها مآل الكافرين والمشركين، والضالين المكذبين بالله وملائكته، وكتبه ورسله، المنكرين ليوم الدين، والقائلين فيه بالظن والتخمين، أو اللاهين عنه والمتشككين فى وقوعه، حتى يسألوا عنه سؤال المستهزئ به، والمستبعد لإمكانية تحقيقه . . . !! وهؤلاء تؤكد السورة الكريمة حتمية هلاكهم وورودهم إلى النار التى كانوا بها يستعجلون.

(٤) التصديق بالجنة ونعيمها، وبأنها مآل المتقين، الذين يحسنون العمل فى الدنيا، ومن مظاهر العمل الصالح فيها: قلة النوم بالليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وإخراج المال للسائل والمحروم.

(٥) الإيمان بملائكة الله المقسمات الأمور المقدرة بين الخلق على ما أمرت به من الله ـ سبحانه وتعالى.

(٦) الإيمان برسل الله وأنبيائه أجمعين، الذين أرسلوا لتعليم الناس حقيقة رسالتهم فى الحياة، وكيف يطبقونها على الوجه الذى يرتضيه الله، وما لهم من بعد الموت، وينذرونهم من أخطار الشرك بالله ومن عذاب يوم عظيم، وقد طولبوا بمداومة التذكير والوعظ بذلك.

(٧) التصديق بكل ما جاء بالقرآن الكريم خاصة ما ورد عن عقاب العاصين من أبناء الأمم السابقة الذين أنكروا رسالات ربهم، واستهزءوا برسله، متهمين إياهم بالسحر أو الجنون.

(٨) اليقين بأن الله ـ تعالى ـ لم يخلق كلاً من الجن والإنس إلا لعبادته بما أمر، ولحسن القيام بواجب الاستخلاف فى الأرض، وإقامة عدل الله فيها.

(٩) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الرزاق ذو القوة المتين.

(١٠) اليقين بأن لكل ظالم نصيبه من عذاب الله، وأن هذا العذاب واقع به لا محالة فى الدنيا قبل الآخرة، كما نزل بالظالمين والكفار والمشركين من أبناء الأمم السابقة.

استعراض سريع لسورة الذاريات

تدعو سورة الذاريات إلى التأمل فى آيات الله المبثوثة فى الأرض، وفى الأنفس، وفى الآفاق، وإلى التعرف على ما فى هذه الآيات الكونية من دلائل على الإيمان بالله، واليقين بوحدانيته، كما تدعو إلى استخلاص الدروس والعبر من قصص عدد من أنبياء الله ورسله السابقين على بعثة خاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ منهم: أبو الأنبياء إبراهيم، وكليم الله موسى، وأول أولى العزم من الرسل نوح ـ على نبينا وعليهم من الله السلام ـ. كذلك عرضت السورة الكريمة لعدد من الأمم البائدة، وإلى ما أصاب تلك الأمم من عذاب

الله فى الدنيا قبل الآخرة، وما لحق بها من هلاك ودمار وخراب؛ بسبب انحرافها عن فطرة الله ومنهجه، وتكذيبها لأنبيائه ورسله، ومن هذه الأمم التى أبيدت أقوام لوط، وفرعون، وعاد، وثمود، ومن قبل هؤلاء جميعًا قوم نوح.

ثم عاودت سورة الذاريات استعراض عدد آخر من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الكون، وعقبت بالدعوة إلى رجوع الخلق إلى الله، وحذرت من الشرك به - سبحانه وتعالى - فى مواضع عديدة منها، وكررت وصف الرسول الخاتم ﷺ بأنه نذير مبين من الله إلى الناس كافة، وأن عبادة الله - تعالى - وحده هى الغاية من خلق كل من الجن والإنس، وأنذرت هذه السورة المباركة كل من يجرؤ على التكذيب ببعثة رسول الله ﷺ بمثل ما أصاب الأمم السابقة من عذاب.

والسورة فى مجملها دعوة إلى الناس جميعًا كى يخلصوا العبادة لله وحده، ويطهروا القلوب من درن الشرك، ومن كل وصف لا يليق بجلال الله . . ومن كل معوقات الحياة . . وأن يصلوها بخالقها الذى هو رب هذا الكون ومليكه، ولذلك أوردت فى خواتيمها هذه الدعوة المباركة: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ [الذاريات: ٥٠، ٥١].

ثم خلصت سورة الذاريات إلى استنكار موقف الكافرين والمشركين من تكذيب رسل الله، وأمرت خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن يشيح بوجهه الشريف عنهم، وألا ينشغل بهم عن تذكير الناس . . فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وأكدت أن كلاً من الجن والإنس ما خلق إلا لعبادة الله - تعالى - وحده (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد) فالله - سبحانه وتعالى - لا يريد من أحد منهم رزقا ولا إطعامًا؛ لأنه هو - سبحانه - الرزاق ذو القوة المتين.

وختمت هذه السورة المباركة بالتأكيد على أن للذين ظلموا فى هذه الدنيا نصيبًا وحظًا من العقاب نازلاً بهم لا محالة، مثل نصيب من سبقوهم من الكفار والمشركين، وتهددهم بعذاب أشد وأنكى فى الآخرة، يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الآيات الكونية فى سورة الذاريات

فى مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق، والشهادة على أن الذى أبدع هذا الخلق قادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد أى بعثه، استعرضت سورة الذاريات عدداً من الآيات الكونية لمحاجة الكفار المكذبين بيوم الدين منها ما يلى:

(١) قسم بالرياح التى سخرها ربنا - تبارك وتعالى - لتذرية التراب ذروًا، ودور ذلك فى برى الصخور، وتسوية سطح الأرض، وتكوين التربة، وتلقيح كل من السحاب والنبات بما تحمل الرياح من هباءات الغبار ومن حبوب اللقاح، ودور ذلك فى إنزال المطر وإخصاب كل من الأرض والنبات.

(٢) قسم بالسّحب التى يُحَمِّلها ربنا - تبارك وتعالى - ثقلاً عظيمًا من بخار الماء لينزله بتقديره وعلمه حيث يشاء، وبالقدر الذى يشاء، وفى الوقت الذى يشاء، رحمة منه بخلقه أو عقابًا وعذابًا للعاصين من عباده.

(٣) قسم بالسفن الجاريات فى يسر على سطح الماء، ولولا أن الله - تعالى - قد وهب الماء قدرًا من الصفات الفطرية المميزة له، لما جرت السفن على سطحه أبدًا بهذا اليسر، وتلك السهولة.

(٤) قسم بالملائكة التى تقسم الأمور المقدرة فى الكون حسب أوامر الله - سبحانه وتعالى - وحسب مشيئته، فتحمل الأوامر الإلهية، وتوزعها وفق تلك المشيئة بين الخلق، وبين مختلف قوى الكون بدقة وانضباط بالغين، ولو أن الملائكة من الأمور الغيبية بالنسبة لنا، إلا أن أثرها فى الكون لا يمكن إغفاله.

(٥) قسم بالسماء ذات الحبك أى ذات الإحكام فى الخلق، والترابط والتماسك المحكم الشديد، والكثافات المتباينة بين مختلف أجزائها وأجرامها.

(٦) الإشارة إلى أن ما فى الأرض من آيات يَدُلُّ على طلاقة قدرة الله انطلاقًا من قوله - تعالى - ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

(٧) التأكيد على آيات الأنفس بقول الحق ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١].

(٨) إثبات أن ما يوعد الناس، وما يرزقون به يقرر فى السماء وينزل منها انطلاقًا من قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢].

(٩) الإشارة إلى حقيقة توسع الكون التى لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى الثلث الأول من القرن العشرين، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧].

(١٠) الإشارة إلى عمليات تمهيد وتسوية سطح الأرض، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٨].

(١١) التأكيد على الزوجية المطلقة فى الخلق انطلاقًا من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩].

وكل آية من هذه الآيات تحتاج إلى معالجة خاصة، لفهمها وفهم دلالاتها العلمية فهمًا صحيحًا، ولما كان المقام لايتسع لذلك، أجدنى مضطرًا إلى قصر الحديث هنا على النقطة الأخيرة من قائمة الآيات الكونية السابقة ألا وهى التأكيد على الزوجية المطلقة فى الخلق، وقبل البدء فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة . .

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩]

* ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره : « . . . ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أى جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء (نور) وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة،

وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى لتعلموا أن الخالق واحد لاشريك له . . ».

* وجاء فى تفسير الجلالين - رحمهما الله - ما مختصره: «﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق بقوله خلقنا ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والسهل والجبل، والصيف والشتاء، والحلو والحامض، والنور والظلمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من الأصل (تتذكرون) فتعلمون أن خالق الأزواج فرد فتعبدونه».

* وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه: «وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض - وربما فى هذا الكون، إذ أن التعبير لا يخصص الأرض - بقاعدة الزوجية فى الخلق. وهى ظاهرة فى الأحياء، «ولكن كلمة (شىء) تشمل غير الأحياء أيضًا، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية».

«وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنًا، وأن فكرة عموم الزوجية - حتى فى الأحياء - لم تكن معروفة حينذاك، فضلا عن عموم الزوجية فى كل شىء. . حيث نتذكر هذا نجد أننا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير !».

«كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول إلى الحقيقة، وهى تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة، وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء: موجب وسالب ! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة فى ضوء هذا النص العجيب».

«وفى ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة، الهائلة المدى، فى أجواء السماء، وفى آماد الأرض، وفى أعماق الخلائق، يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق، متجردين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها . . موحدين الله الذى خلق هذا الكون وحده بلا شريك».

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن - رحم الله كاتبه - ما نصه: «﴿زَوْجَيْنِ﴾ نوعين متقابلين كالليل والنهار، والسماء والأرض، والهدى والضلال، إلى غير ذلك.

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزى الله كاتبيه خيراً - ما نصه: « ومن كل شىء خلقنا صنفين، مزدوجين، لعلكم تتذكرون فتؤمنوا بقدرتنا».

* وجاء فى صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى ومن كل شىء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكراً وأنثى، وحلواً وحامضاً ونحو ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى كى تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به، وتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

فى قوله - تعالى - :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

تأكيد على قاعدة الزوجية المطلقة فى خلق كل شىء من الأحياء والجمادات، بمعنى أن الله - تعالى - خلق كل شىء فى زوجية حقيقية، وأن هذه الزوجية ظاهرة عامة فى كل المخلوقات، وعلى جميع المستويات: من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان وإلى مختلف وحدات الكون، وأنها سمة من سمات التناسق والتناغم والتوافق فى الخلق، وشهادة ناطقة بالوحدانية المطلقة للخالق - سبحانه وتعالى - تلك الوحدانية المطلقة التى تؤكد أن الخالق - سبحانه وتعالى - فوق جميع خلقه، وهو الذى وصف ذاته العلية بقوله الحق: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]

كما وصف هذه الذات العلية بأمره الواضح الصريح إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، ومن ثم إلى كل مؤمن بالله أن يردد فى كل وقت وفى كل حين: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

[الإخلاص: ١ - ٤].

وهذه الزوجية فى الخلق، الناطقة بوحدانية الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ تتجلى لنا فى المراحل التالية:

١ ـ الزوجية من ذكر وأنثى فى الكائنات الحيّة من الإنسان إلى كل من الحيوان والنبات، وفى الخلايا الجسدية لكل جنس.

٢ ـ الزوجية فى الخلايا التناسلية بنوعيها: الذكرية والأنثوية.

٣ ـ الزوجية فى النطفة الذكرية التى قد تحمل صبغى التذكير(Y) أو صبغى التأنيث(X).

٤ ـ الزوجية فى أعداد الصبغيات الموجودة فى نواة الخلية الحيّة.

٥ ـ الزوجية فى حاملات الوراثة ـ المورثات أو الناسلات أو الچينات ـ الموجودة على كل صبغى من الصبغيات.

٦ ـ الزوجية فى بناء جزىء الحمض النووى٦,١٨ بليون قاعدة كيميائية فى جدارين متقابلين تفصلهما سلميات متتابعة تتكون كل سلمية منها من زوج من القواعد النيتروچينية.

٧ ـ الزوجية فى ترابط كل قاعدتين من القواعد النيتروچينية الأربعة البانية لسلميات الحمض النووى (DNA). وتعرف بالرموز (A, T; C, G).

٨ ـ الزوجية فى ترابط جزىء سكر الريبوز ـ وهو جزىء عضوى ـ مع جزىء الفوسفات ـ وهو جزىء غير عضوى ـ لتكوين جدار جزئ الحمض النووى(DNA).

٩ ـ الزوجية فى بناء كل من الأحماض الأمينية و البروتينات المتجمعة منها فى صورها اليمينية واليسارية.

١٠ ـ الزوجية فى بناء البروتينات وأضدادها (Proteins and Antiproteins).

١١ ـ الزوجية فى بناء الجزىء الكيميائى للمادة بشقيه: الموجب والسالب (Cation and Anion).

١٢ ـ الزوجية فى الذرة بنواتها التى تحمل شحنة موجبة وإلكتروناتها التى تحمل شحنة سالبة (Elementary Particles and their Counters) .

١٣ ـ الزوجية فى الجسيمات الأولية للمادة وأضدادها .

١٤ ـ الزوجية فى اللبنات المكونة للجسيمات الأولية للمادة وأضدادها .

١٥ ـ الزوجية فى المادة ونقيض المادة (Matter and Antimatter) .

١٦ ـ الزوجية فى شحنات الطاقة الموجبة والسالبة .

١٧ ـ الزوجية فى كل من المادة والطاقة وهما وجهان لعملة واحدة ولجوهر واحد يشير إلى وحدانية الخالق العظيم .

ويستطيع المتأمل فى الكون أن يستمر فى هذا السياق إلى ما لا نهاية، ليؤكد على حقيقة الزوجية المطلقة فى كل أمر من أمور هذا الكون : دق أم عظم، وليكون فى ذلك شهادة بأن الوحدانية المطلقة هى لله الخالق وحده، لا يشاركه فيها شريك، ولا ينازعه عليها منازع، فهى من صفات الواحد الأحد، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد) .

وكل صورة من صور الزوجية تلك تحتاج إلى مقال مستقل، ولذلك فسوف أختار هنا بعض النماذج منها فقط فى السطور التالية :

أولاً: الزوجية فى الكائنات الحيّة:

تتكاثر الكائنات الحيّة من الإنسان والحيوان بالتزاوج بين ذكر وأنثى ويعرف ذلك باسم «التكاثر الجنسى» الذى تأتى فيه نصف الصفات الوراثية للجنين من الأب، وخط الأب إلى أبينا آدم ـ عليه السلام ـ والنصف الآخر من الأم وخط الأم إلى أمنا حواء ـ عليها السلام ـ. فالتركيب الوراثى للخلية الجسدية فى الإنسان على سبيل المثال تحمل نفس عدد الصبغيات فى كلّ من الذكر والأنثى ويختلفان فى الصبغيات المحددة للجنس فقط، فخلية الذكر الجسدية تحمل ٤٦ صبغيّا منها صبغيّان جنسيان أحدهما مذكر (Y)، والآخر مؤنث (X) بينما تحمل الخلية الجسدية فى الأنثى نفس

عدد الصبغيات (٤٦) منها صبغيان أنثويان، (XX) أما الخلايا التناسلية فتحمل نصف عدد الصبغيات الموجودة فى الخلية الجسدية، فالحيوان المنوى يحمل ٢٣ صبغيًا، وكذلك البويضة، وفى الحيوان المنوى يكون أحد الصبغيات محددًا للصفات الجنسية ويكون إما مذكرًا (Y) (22+Y) وإما مؤنثًا (X) (22+X)، وعلى ذلك فإن طبيعة الحيوان المنوى (22+Y) أو (22+X) هى التى تحدد - بتقدير مسبق من الله تعالى - جنس الجنين ذكرًا أو أنثى.

وفى معظم حالات الحيوان والنبات تكون الذكور والإناث منفصلة عن بعضها البعض، وفى بعض الحيوانات البسيطة توجد الخلايا الذكرية والأنثوية فى جسد الفرد الواحد الذى يقايض خلاياه الذكرية مع فرد آخر. وفى التكاثر الجنسى قد يتم الإخصاب فى داخل الجسم أو فى خارجه.

أما الكائنات الحيوانية الأكثر بساطة فتتكاثر بالانشطار، أو بالتبرعم، أو التجزؤ، أو بالتجدد أى التراكم، أو بالتوالد العذرى أى بدون إخصاب، ويعرف كل ذلك بـ«التكاثر غير الجنسى»، وقد يتبادل الحيوان الواحد كلا النوعين من التكاثر فى دورة حياته التى تعرف باسم «دورة تبادل الأجيال».

ومن معرفتنا بالزوجية فى كل من اللبنات والجسيمات الأولية للمادة. نستطيع أن نجزم بأن صورة من صور الزوجية تتم فى حالات التكاثر غير الجنسى.

وفى النبات تتضح الزوجية بشكل بَيِّن فى الأنواع المنتجة للأزهار والمعروفة باسم النباتات المزهرة - والتى يزيد عددها علىَ الربع مليون نوع، وأزهارها التى تنتج عن تفتح براعمها تحمل أعضاء التكاثر من الخلايا الذكرية والأنثوية التى قد توجد فى زهرة واحدة، أو فى زهرتين مختلفتين على نبات واحد، وقد يكون من النبات الواحد الذكر والأنثى.

وتؤدى عملية الإخصاب فى النباتات المزهرة إلى إنتاج البذور، وتحتوى كل بذرة على جنين النبتة الجديدة، ومخزون من الطعام قَدَّره الخالق المبدع لهذا الجنين حتى ينمو إلى نبتته الكاملة والقادرة على تجهيز غذائها بما وفر الله - تعالى - لها من قدرات، وتحفظ البذور عادة فى الثمرة أو قد تكون هى الثمرة.

أما النباتات غير المزهرة فتتكاثر بالنوعين الجنسى وغير جنسى على مرحلتين فى دورة واحدة تعرف باسم «دورة تبادل الأجيال»، فى المرحلة الأولى منها ينتج النبات كلا من الخلايا الجنسية الذكرية والأنثوية، وتنفصل الخلايا الذكرية وتتحرك فى الأوساط المائية للوصول إلى خلية أنثوية من نبات آخر من نفس النوع والقيام بتلقيحها وإخصابها بالاتحاد معها، وفى الدورة الثانية ينتج النبات خلايا تناسلية اسمها «الأبواغ»، تتناثر عن النبات الحامل لها عند نضجها، وتنمو فى الأوساط المناسبة لها نباتًا جديدًا.

ثانيًا: الزوجية فى الخلايا التناسلية الذكرية والأنثوية:

أعطى الخالق - سبحانه وتعالى - لجسم الذكر البالغ القدرة على إنتاج خلايا جنسية ذكرية تعرف باسم «الحيوان المنوى أو الحيمن»، كما أعطى لجسم الأنثى القدرة على إنتاج خلايا جنسية أنثوية تعرف باسم البويضة أو «البييضة» - تصغير بيضة -، وهذان الزوجان من الخلايا التناسلية إذا اتحدا فإنهما يكونان معًا نطفة مختلطة - نطفة أمشاج - تبدأ فى الانقسام المطرد حتى تتكون التوبتة التى تنغرس فى جدار الرحم، وتتغذى الأم، وتنمو بالتدريج فى مراحل محددة ومتعاقبة حتى يتم تخليق مولود جديد بإذن الله - تعالى.

ثالثًا: الزوجية فى النطفة الذكرية ذاتها:

كما سبق وأن أشرنا فإنه بالإضافة إلى الصبغيات الجسدية فإنه يوجد فى كل حيوان منوى صبغى جنسى واحد إما (X) ويعنى الأنوثة أو (Y) ويعنى الذكورة، وتحتوى البييضة على نفس عدد الصبغيات الجسدية الموجودة فى الخلية الذكرية بالإضافة إلى الصبغى الأنثوى (X)، بينما الحيوانات المنوية إما أن تحمل الصبغى المذكر أو المؤنث، فإذا كان الحيوان المنوى الذى أخصب البييضة مما يحمل صبغى التذكير جاء الجنين ذكرًا بإذن الله، وإذا كان مما يحمل صبغى التأنيث جاء المولود أنثى بإذن الله. فالزوجية موجودة حتى فى نطف الذكر، وليست بين نطفة الذكر ونطفة الأنثى فقط.

رابعًا: الزوجية فى الصبغيات نفسها:

توجد الصبغيات فى نواة الخلية الحيّة على هيئة خيوط متشابكة من مادة تسمى باسم المادة المصبوغة أو كروماتين - (Chromatin) تعطى للنواة مظهرًا شبكيًا أو حبيبيًا، وتتكون هذه الصبغيات إلى حد كبير من الحمض النووى المعروف باسم الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين أو الحامض الرايبوزى غير الأكسچينى - (Deoxyribonucleic Acid or DNA) الذى تكتب به الشفرة الوراثية للخلية، بالإضافة إلى كم من البروتينات بنسب متساوية تقريبًا.

وكل واحد من هذه الصبغيات - التى يعتبر عددها من العوامل المحددة للنوع - يتكون من شريطين متصلين ببعضهما بجزء دقيق يعرف باسم شريط اللحمة المركزى أو القطعة المركزية (Centromere) له مكان محدد على كل صبغى، يكون أحيانا قريبا من وسط الصبغيين، وغالبًا ما يقع قرب أحد طرفيهما، وهذه صورة من صور الزوجية المبهرة فى الخلق.

خامسًا: الزوجية فى وحدات الوراثة (المورثات أو الناسلات أو الچينات):

تتوزع وحدات الوراثة على طول كل واحد من الصبغيات على هيئة قطع منفصلة من الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين (DNA) فى زوجية واضحة؛ لأن أحد هذه المورثات يأتى إلى الجنين من جهة الأب والآخر يأتيه من جهة الأم.

سادسًا: الزوجية فى بناء جزىء الحمض النووى، وفى بناء كل من سلمياته وجداريه:

بالدراسة اتضح أن كل جزىء من جزيئات الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين (DNA) ينبنى على هيئة سلم حبلى مفتول، أو ما يعرف باسم «اللولب المزدوج» (Double Helix) تتضح فيه الزوجية فى جانبيه المصنوعين من جزيئات سكر الريبوز المنقوص الأكسچين، وجزيئات من الفوسفات، كما تتضح الزوجية فى درجات هذا السلم الحبلى المفتول والتى تتكون كل درجة من درجاته من زوج من قواعد نيتروچينية أربع هى:

الأدينين (Adenine = A)، والثيامين (Thyamine = T)، والجوانين (Guanine = G)، والسيتوسين (Cytosine = E) على أن يرتبط الأولان فى زوجية واضحة معًا (AT)، وأن يرتبط الأخيران كذلك معًا (GC)، ومعًا فقط فى زوجية واضحة كذلك، ليشكل كل زوج منهما درجة من سلميات جزىء الحمض النووى الريبى المنقوص الأكسچين (DNA) على شكل نويدتين (Two Nucleotides) تتكون كل منهما من قاعدة نيتروچينية (Nitrogenous Base) مستندة إلى زوج من السكر والفوسفات تأكيدًا على الزوجية فى الخلق من أدق الدقائق إلى أكبر الوحدات.

سابعًا: الزوجية فى بناء كل من الأحماض الأمينية والبروتينات:

تعد الأحماض الأمينية (Amino Acids) الوحدة البنائية الأساسية لمختلف جزيئات المواد البروتينية (Protein Molecules) التى تبنى منها أجساد الكائنات الحيّة. والأحماض الأمينية من الأحماض الدهنية، التى تذوب فى الماء بسهولة فى أغلب الأحيان، ولها فى حالتها المتبلورة نشاط ضوئى ملحوظ بسبب احتواء جزيئاتها على ذرة كربون محاطة بأربع مجموعات مختلفة هى: مجموعة الأمين (NH_2)، ومجموعة الكربوكسيل (COOH)، ومجموعة الحمض (R)، وذرة أيدروچين (H) ولذلك فالجزىء غير متماثل، وتتحرك هذه المجموعات لتتبادل الأوضاع حول ذرة الكربون، فقد توجد مجموعة الأمين (NH_2) فى مواضع مختلفة بالنسبة لمجموعة الكربوكسيل.

ونظرًا لعدم تماثل جزىء الحمض الأمينى فإن كل واحد من الأحماض الأمينية يمكن أن يوجد فى شكلين أحدهما يدير مستوى الضوء المستقطب إلى اليمين ويعرف باسم «الشكل اليمينى» (Right-handed isomer)، والشكل الآخر يديره إلى اليسار ويعرف باسم «الشكل اليسارى» (Left-handed isomer).

وقد ثبت أن الأحماض الأمينية فى أجساد جميع الكائنات الحيّة - النباتية والحيوانية والإنسية - هى من الأشكال المرتبة ترتيبًا يساريًا، فإذا ما مات الكائن الحى فإن الأحماض الأمينية اليسارية الترتيب فى بقايا جسده تبدأ بإعادة ترتيب الذرات فى داخل جزيئاتها من الترتيب اليسارى إلى الترتيب اليمينى بمعدلات ثابتة حتى يتساوى الشكلان، ويعرف هذا الخليط باسم «الخليط الراسيمى - Racemic

Mixture» وهو خليط لايمكنه تحريك مستوى الضوء المستقطب، ولكنه يمثل: صورة من صور الزوجية فى أضيق صورها.

ويمكن استخدام نسبة الشكلين اليمينى واليسارى للحمض الأمينى الواحد فى بقايا أى من النبات أو الحيوان أو الإنسان فى تحديد لحظة وفاته بدقة بالغة نظرًا لثبات معدلات التحول من الشكل اليسارى إلى الشكل اليمينى.

ويعرف العلماء من الأحماض الأمينية البانية للبروتينات عشرين نوعًا كل منها ممثل بزوجية واضحة، وباتحاد هذه الأحماض الأمينية العشرين يمكن بناء أكثر من مليونى نوع من أنواع البروتينات. والخلية الحيّة فى جسم الإنسان قد أعطاها الله - تعالى - القدرة على إنتاج مائتى ألف نوع من أنواع هذه البروتينات، وبالمثل فإن كل جزىء من جزيئات البروتينات العديدة يمكن أن يكون له شكل يمينى وآخر يسارى، وهى فى أجساد جميع الكائنات الحيّة من الشكل اليسارى.

وكذلك النويدات (**Nucleotides**) على الصبغيات وهى أصغر وحدات الحمض النووى الريبى والريبى المراسل (**DNA, mRNA**) فإن منها اليمينى واليسارى، وكلها فى أجساد الكائنات الحيّة من الشكل اليمينى. وفوق ذلك فإن هناك «الشفيرات - **Codons**» التى تتكون الواحدة منها من ثلاث نويدات، وهناك «السيسترونات **Cistrons**» التى تتكون من عدة مئات إلى عدة ألوف من النويدات وهى الوحدة الوراثية الوظيفية فى حاملات الوراثة (أو الچينات)، وكل واحد من هذه الوحدات الوراثية له نظيره، و كل واحد من البروتينات المعروفة له ضده (**Proteins And Antiproteins**)، وكل جسم من الأجسام المكونة من البروتينات له ضده (**Bodies And Antibodies**)؛ بالإضافة إلى أن من البروتينات بروتينات بانية وأخرى هادمة (**Constructive Proteins and Destructive ones**).

ثامنًا: الزوجية فى المادة وفى مركباتها:

تتضح الزوجية فى مركبات المادة فى شقيها الموجب (**Cation**)، والسالب (**Anion**). كما تتضح فى تركيب الذرة بنواتها التى تحمل شحنة موجبة، وإلكتروناتها التى تدور حول النواة حاملة شحنة سالبة مكافئة.

وقد ثبت أن للمادة قرابة الثلاثين نوعًا من أنواع اللبنات الأولية، وكل واحدة منها لها نقيضها، كما أن الجسيمات الأولية للمادة لها لكل جسيم نقيضه، وأن المادة ككل لها نقيض المادة، وإذا التقت النقائض فإن كل واحد منها يفنى نظيره؛ لأنهما يتخليان عن طبيعتهما المادية، ويتحولان إلى طاقة تعلن عن فناء المادة، ومن هنا كان الوجود والعدم، وكانت إمكانية الإيجاد من العدم أى الخلق على غير مثال سابق، وإمكانية الإفناء إلى العدم، ولا يقدر على ذلك أحد غير الإله الخالق سبحانه وتعالى.

تاسعا: الزوجية فى الطاقة:

وكما تتضح الزوجية فى المادة فإنها تتضح كذلك فى الطاقة، فإن لكل صورة من صورها ما هو ضدها، فالكهرباء فيها الموجب والسالب، والمغناطيسية فيها العادى والمقلوب (المعكوس)، حتى الضوء له زوجية واضحة؛ لأنه يتحرك أحيانًا على هيئة أمواج، وأحيانًا أخرى على هيئة جسيمات.

كذلك فقد ثبت أن المادة والطاقة وجهان لعملة واحدة، وصورتان لجوهر واحد، يشير إلى وحدانية الخالق - سبحانه وتعالى -، وخلق اللبنات الأولية للمادة على هيئة أزواج من الطاقة، وتحويلها إلى طاقة على هيئة زوجية أيضًا، وإمكانية رد الطاقة إلى حالة مادية كما خلقت أول مرة، كل ذلك تأكيد على حقيقة بدء الخلق من العدم وعلى إمكانية إفنائه إلى العدم.

ونحن نرى الزوجية فى كل صورة من صور الخلق: من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته، حتى يبقى الخالق - سبحانه وتعالى - متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ونرى كذلك وحدة البناء فى الخلق تجسيدًا لوحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

فلكل جسيم فى الذرة جسيم نقيض . . وهذه الجسيمات ونقائضها تكون المادة والمادة النقيضة، وفى النقائض توجد كل الصفات معكوسة من الشحنات الكهربية إلى المجالات المغناطيسية إلى اتجاهات الدوران، وعلى ذلك فلا يمكن لمثل تلك النقائض أن تجتمع فى مكان واحد وإلا أفنى بعضها بعضًا.

فسبحان الذى خلق الخلق فى زوجية واضحة تشهد له بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وسبحانه إذ خلق المادة ونقائضها من الطاقة، وسبحانه إذ خلق تلك النقائض فى نفس الوقت وبنفس القدر حتى يثبت لنا الخلق من العدم، وإمكانية الإفناء إلى العدم !!.

وسبحانه إذ فصل بين المادة ونقائضها حتى يوجد هذا الكون الشاسع الاتساع، الدقيق البناء، المحكم الحركة، المنضبط فى كل أمر من أموره، والمبنى على وتيرة واحدة تشهد للخالق - سبحانه وتعالى - بالوحدانية. وسبحانه إذ أبقى المادة النقيضة فى مكان ما عنده حتى إذا شاءت إرادته إفناء الكون جمع المادة ونقائضها بأمره: «كن فيكون»، وإذا شاء بعث كل شىء بفصلهما كذلك بالأمر «كن فيكون».

وسبحانه إذ قرر هذه الحقيقة الكونية فى محكم كتابه (القرآن الكريم) الذى أنزله بعلمه من قبل ألف وأربعمائة سنة، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ذلك النبى الأمى الذى بعث فى أمة أمية، فتلقى القرآن الكريم من ربه وبَلَّغَه أحسن تبليغ، وتعهد هذا الإله العظيم بحفظ رسالته الخاتمة فى نفس لغة وحيها (اللغة العربية) لتكون هداية للخلق أجمعين منذ لحظة الوحى بها وإلى يوم الدين؛ لأنه ليس من بعد خاتم الأنبياء والمرسلين من نبى ولا من رسول. وفى إرساء هذه الحقيقة قال عز من قائل ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. وهى حقيقة لم يدركها علم الإنسان الكسبى إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين، ووروودها فى كتاب الله المنزل على خاتم أنبيائه ورسله من قبل ألف وأربعمائة من السنين لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويجزم بالنبوة وبالرسالة لسيدنا محمد بن عبدالله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

obeikandl.com

٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا
وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا
تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[البقرة: ٢٢]

obeikandl.com

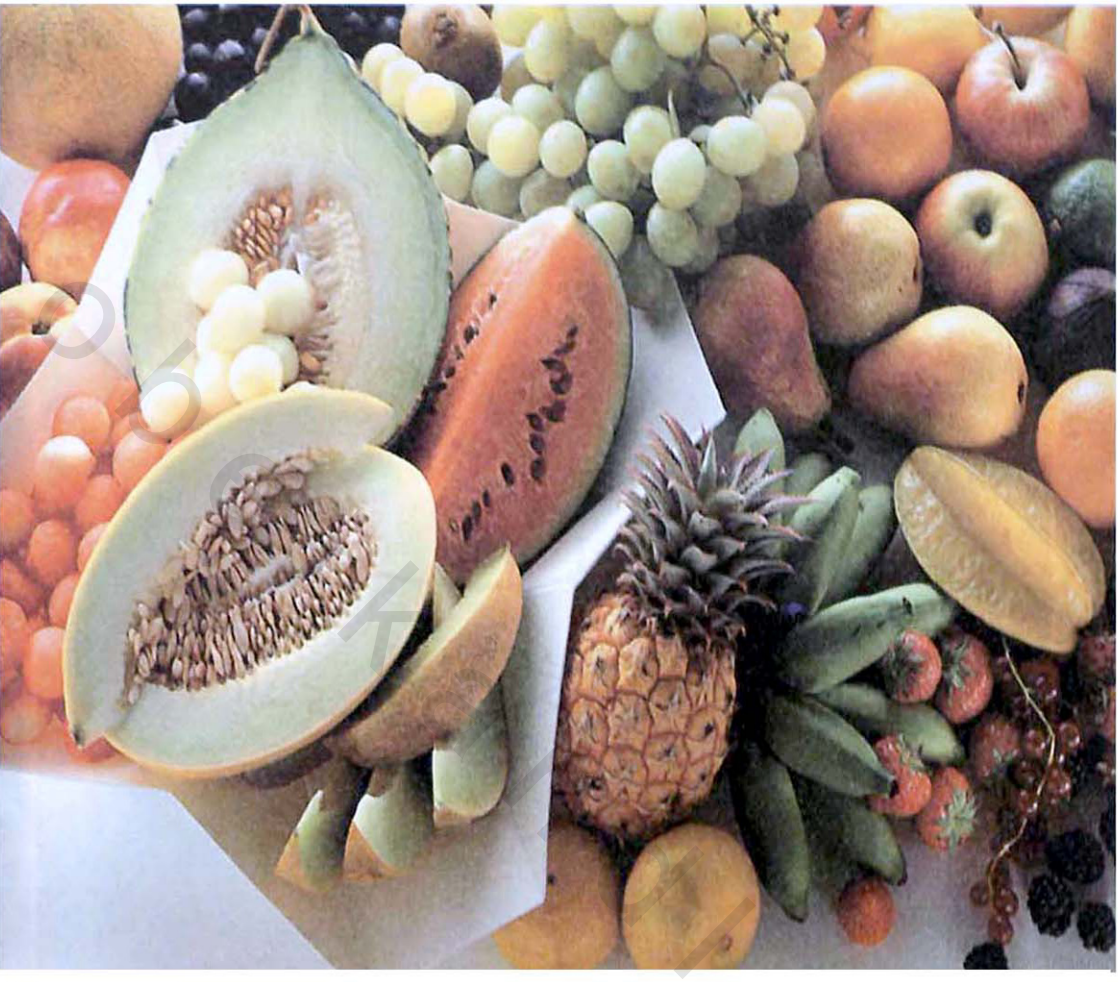

﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة: ٢٢]

هذه الآية الكريمة جاءت فى مقدمات سورة البقرة، وهى سورة مدنية، وآياتها ست وثمانون ومائتان بعد البسملة، وعلى ذلك فهى أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق. وأول سورة بعد فاتحة الكتاب فى ترتيب سور المصحف الشريف، وقد عظمها رسول الله ﷺ تعظيمًا كبيرًا فقال: **«إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة»**. وقد سميت السورة بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التى أجراها الله - تعالى - على يد نبيه موسى - عليه السلام - حين تعرض فرد من قومه للقتل، ولم يعرف قاتله فأوحى الله - تعالى - إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ليخبر عن قاتله ثم يموت وذلك إحقاقًا للحق، وشهادة عملية لقدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى.

ويدور المحور الرئيسى لسورة البقرة حول عدد من الأحكام الشرعية، والقضايا التعبدية، والضوابط الأخلاقية والسلوكية، والركائز العقدية التى يمكن إيجازها فى النقاط الأساسية التالية:

أولاً: من ركائز العقيدة فى سورة البقرة:

(١) الإيمان بالله - تعالى - وحده - بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(٢) هذا الإيمان يقتضى التسليم بوحدة الرسالة السماوية التى أنزلها ربنا - تبارك وتعالى - على فترة من الرسل، وختمها وأتمها، وأكملها فى القرآن الكريم،

الذى تعهد ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه، فحفظ حفظًا كاملاً فى لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، ليبقى مصدرًا لهداية الناس كافة إلى يوم الدين .

(٣) الإيمان بوحدة الجنس البشرى دون تمييز عرقى أو عنصرى أو على أى أساس آخر؛ لأن البشرية كلها أسرة واحدة ينتهى نسبها إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام، وآدم خلق من تراب .

(٤) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، والتحذير من فجائية وقوعها، وأهوالها، والعمل الجاد فى الاستعداد لمواجهتها، وفى ذلك جاء قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم .

ثانيًا: من أوامر العبادة فى سورة البقرة:

(١) الالتزام بركائز الدين من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

(٢) عدم التفرقة بين رسل الله، وترك التفضيل بينهم لله، وتتويج الإيمان بهم جميعًا بالتصديق بالنبى الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وبالرسالة الخاتمة التى أوحيت إليه والتى حفظت فى القرآن الكريم وفى سنته الشريفة .

(٣) ضرورة تلقى الدين بواسطة الأنبياء والمرسلين عن طريق الوحى السماوى، وعرضه على العقل والقلب فى موضوعية وحيدة حتى يصل الإنسان إلى القناعة العقلية والقلبية الكاملة، والتسليم بأن دين الله مبنى على اليسر، ورفع الحرج، وأن من أصوله الثابتة أنه: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(٤) التسليم بأن القتال مشروع فى الإسلام لدفع المظالم، وللدفاع عن الأرض، والعرض، وعن النفس والمال والولد والأهل، وعن الدين ومقدساته، ولتأمين سيادة عدل الله فى الأرض، ولضمان حرية التدين، وللمحافظة على كرامة

الإنسان من أى جور أو طغيان، ولذلك تدعو سورة البقرة إلى الجهاد فى سبيل الله دون اعتداء، وإلى تعظيم منازل الشهداء، وإكبار الجهاد والمجاهدين، وإلى تقدير مقامات الصابرين فى البأساء والضراء، ومقامات الموفين بعهودهم إذا عاهدوا، وإلى غير ذلك من القيم السامية التى تقع من مكارم الأخلاق فى الصميم.

(٥) الدعوة إلى التأمل بعين البصيرة فى آيات الله العديدة المنتشرة فى الأنفس والآفاق؛ لأنها هى كتاب الله المنظور، كما أن القرآن الكريم هو كتابه المقروء.

ثالثا: من قواعد المعاملات فى سورة البقرة:

(١) فصلت سورة البقرة أحكام الأسرة من الزواج، والطلاق، والعدة، والرضاع وغيرها.

(٢) تدعو سورة البقرة فى مواضع عديدة منها إلى الإنفاق فى سبيل الله، وإلى الإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وتدعو إلى إيثار الخير ونبذ الشر، كما تدعو إلى العمل الصالح المنطلق من الإيمان الصادق بالله، وإلى الاستعانة على كل جليل من الأمور بالصبر والصلاة، وإلى ترك العصبيات العرقية والإقليمية الضيقة، وإلى نبذ الموروثات المغلوطة، والتقليد الأعمى، وإلى التمسك بتحكيم العقل من أجل الوصول إلى سلامة الحكم فى كل أمر من أمور الحياة، كما تنعى السورة الكريمة على كل من يدعو إلى الحق وفضائل الأعمال ثم ينسى نفسه، وتحذر بشدة من التعامل بالربا وتهدد الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، كما تحذر من كتم الشهادة، وتؤكد المحافظة على حقوق الآخرين بكل وسيلة مشروعة، وتحذر من التساهل فى التعامل مع ديون العباد، وتضع الشروط الواجبة لحفظ حقوق الآخرين.

(٣) مايزت سورة البقرة فى مواقع عديدة منها بين صفات كل من المتقين، والكفار، والمشركين، والمنافقين، وضربت نماذج لكل منهم، وألمحت إلى نعيم المتقين فى الجنة، وإلى عذاب كل من المنافقين والكفار والمشركين فى النار، وصورت

جانبًا من ذلهم وحيرتهم يوم القيامة، وحذرت المؤمنين من موالاتهم أو الركون إليهم فى الدنيا، كما حذرت من متابعة الشيطان الرجيم وأعوانه وجنده .

(٤) وللتأكيد على هذه المعانى والقيم، ألمحت سورة البقرة لقصة أبينا آدم عليه السلام وزوجه، وإلى جوانب من قصة نبى الله إبراهيم على نبينا وعليه السلام، وأشارت إلى اختلاف أتباع نبى الله عيسى عليه السلام من بعده بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣].

كما تحدثت سورة البقرة عن واقعة تحويل القبلة، وعن قرار الله ـ تعالى ـ بجعل أمة الإسلام أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيدًا .

(٥) وختمت سورة البقرة بدعاء إلى الله ـ تعالى ـ يهز القلوب والعقول، ويحرك الضمائر والمشاعر حيث تقول : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦].

من الآيات الكونية فى سورة البقرة

(١) التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب لا ريب فيه، وإشاراته الكونية تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها (الآية ٢).

(٢) الإشارة إلى أمراض القلوب، ومنها الخوف، والوسوسة، والشك، فى زمن لم يكن معروفًا لأحد شىء من تلك الأمراض (الآية ١٠).

(٣) التمييز بين كل من الضياء والنور والنار، والمقابلة بين الظلمات والنور وهى من الحقائق العلمية التى لم يدركها الإنسان إلا فى القرن العشرين (الآية ١٧).

(٤) ذكر الصيِّب من السماء وهو المطر الغزير الذى يكثر هطوله بالليل، والمصحوب بالرعد والبرق والصواعق والعواصف، وهو تجمع فريد من الظواهر الكونية التى لم تدرك إلا مؤخرًا (الآية ١٩).

(٥) الإشارة إلى خطف البصر عن طريق النَّظر مباشرة بشيء من التركيز إلى ضوء البرق، وتقديم السمع على البصر (الآية ٢٠)، وهى إشارة إلى تكامل خلق حاسة السمع قبل تكامل حاسة البصر وهو ما أثبتته الدراسات فى علم الأجنة فى العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(٦) الإشارة بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء (الآية ٢١).

(٧) الإشارة إلى فرش الأرض وتمهيدها، وبناء السماء وإحكامها وحبكها، وإنزال الماء من السحاب، وإخراج مختلف الثمرات بواسطته (الآية ٢٢).

(٨) ضرب المثل بالبعوضة وما فوقها وهى من الحشرات المميزة فى بناء جسدها، والخطيرة فى إيذائها للإنسان (الآية ٢٦).

(٩) التأكيد على أن الموت سابق للحياة ولاحق بها، وأن الله ـ تعالى ـ خلق ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم، ومثل هذه القضايا لا تستطيع العلوم المكتسبة الوصول إليها أبدًا لأنها خارجة عن نطاق القدرة البشرية وإمكاناتها المحدودة (الآية ٢٩).

(١٠) إثبات واقعة فلق البحر وفرقه إلى فرقتين كرامة ومعجزة لنبى الله موسى عليه السلام، ونجاته ومن معه، وهلاك فرعون وجنده، وهى من حقائق التاريخ التى لم تكن معروفة للناس فى زمن الوحى (الآية ٥٠).

(١١) الإشارة إلى انفجار اثنتى عشرة عينًا من عيون الماء بضربة من عصا موسى عليه السلام على الضفة الشرقية من خليج السويس فى منطقة تعرف اليوم باسم «عيون موسى» (الآية ٦٠).

(١٢) الإشارة بالمشرق والمغرب إلى الكون كله (الآيتان: ١١٥ ـ ١٤٢).

(١٣) اتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين والعلم الحديث يؤكد مركزيته بالنسبة لليابسة (الآيات: ١٤٤ ـ ١٥٠).

(١٤) الإشارة إلى حقيقة خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وإلى إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وبث الدواب من كل نوع فيها، وتصريف

الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وجعل ذلك كله آيات لقوم يعقلون، والمعطيات العلمية تؤكد صدق ذلك كله وحجيته (الآية ١٦٤).

(١٥) التأكيد على حقيقة أن الأهلة هى مواقيت للناس والحج (الآية ١٨٩).

(١٦) إثبات ما فى كل من الخمر والميسر من آثام تفوق أى نفع يمكن أن يجتنى من ورائهما(الآية ٢١٩)، والدراسات المتوفرة كلها تدعم ذلك وتؤيده.

(١٧) التحذير مما فى المحيض من أذى (الآية ٢٢٢) والكشوف العلمية كلها تؤكده.

(١٨) التأكيد على حقيقة أن الجنة، أى الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض بالربوة العالية إذا أصابها الوابل - أى المطر الشديد - آتت أكلها ضعفين، وهو لا يضرها باحتمال إغراقها بالسيول لارتفاعها وسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه، وإن لم يصبها وابل فإن الطل - أى المطر الخفيف أو الرذاذ - يكفيها لرى نباتاتها وطيب عطائها، والمقصود أن هذه الجنة تزكو وتزدهر وتثمر سواء كثر المطر عليها أو قل، وهو تشبيه قائم على حقيقة علمية راسخة، تصف إنفاق الصالحين ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم بأنه يزكو عند الله ويطيب، زاد قدره أم قل، كما تزكو الجنة بالربوة زاد المطر عليها أو قل.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على الآية رقم (٢٢) من سورة البقرة وقبل الدخول إلى ذلك أرى لزامًا علىَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين - القدامى والمعاصرين - فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢].

* ذكر ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره : «فى بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم ﴿الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ : أى مهدا كالفراش، مقررة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات، و﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وهو السقف، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والمراد به السحاب ههنا فى وقته عند احتياجهم إليه؛ فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار رزقا لهم ولأنعامهم . ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾». وأضاف : «قال ابن عباس، قال الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم . وعنه أيضا فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه» . وأضاف كذلك : «قال أبو العالية : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ أى عدلاء شركاء، وقال مجاهد فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل» .

وأضاف ابن كثير عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة والروايات فى معنى هذه الآية الكريمة تؤيد ما ذهب إليه فى تفسيرها .

* وجاء فى الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - تفسير الهاتين الآيتين الكريمتين ما نصه : «إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم . ربهم الذى تفرد بالخلق، فوجب أن ينفرد بالعبادة . . . وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققونه : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . . . لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية، صورة العابدين لله، المتقين لله، الذين أدوا حق الربوبية الخالقة، فعبدوا الخالق وحده، رب الحاضرين والغابرين، وخالق الناس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ند ولا شريك» .

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وهو تعبير يشى باليسر فى حياة البشر على هذه الأرض، وفى إعدادها لهم لتكون لهم سكنًا مريحًا وملجأ وافيًا كالفراش . . . والناس ينسون هذا الفراش الذى مهده الله لهم لطول ما ألفوه، ينسون هذا التوافق الذى جعله الله فى الأرض ليمهد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب فى مثل هذا اليسر والطمأنينة . ولو فقد عنصر واحد من عناصر الحياة فى هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسى فى غير البيئة التى تكفل لهم الحياة . ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة».

« ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ . . . فيها متانة البناء وتنسيق البناء . . . . ».

«﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ . . . والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء فى الأرض جميعًا . . . وقصة الماء فى الأرض، ودوره فى حياة الناس، وتوقف الحياة عليه فى كل صورها وأشكالها . . . كل هذا أمر لا يقبل المماحكة، فتكفى الإشارة إليه، والتذكير به، فى معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب».

«وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى : وحدة الخالق لكل الخلائق ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان، وسماؤه مبنية بنظام، معينة بالماء الذى تخرج به الثمرات رزقًا للناس . . والفضل فى هذا كله للخالق الواحد : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . . تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وتعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، وأنه لم يكن له شريك يساعد، ولا ند يعارض، فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لا يليق !».

«والأنداد التى يشدد القرآن فى النهى عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون - ولايزالون - . . فقد تكون الأنداد فى صور أخرى خفية ؛ قد تكون فى تعليق الرجاء بغير الله فى أى صورة، وفى الخوف من غير الله فى أى صورة، وفى الاعتقاد بنفع أو ضر من غير الله فى أى صورة . . . .».

وضرب كاتب الظلال عددًا من النماذج ثم أضاف : «هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفى والأنداد مع الله . . فلننظر بحق أين نحن من هذه الحساسية المرهفة؟ وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة ؟!!».

* وجاء فى كل من تفسير الجلالين، وصفوة البيان لمعانى القرآن، والمنتخب فى تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير - جزى الله كاتبيها خيرًا - كلام مشابه لا حاجة بنا لإعادته .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

أولاً : فى قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ :

تقدر مساحة سطح الأرض الحالية بنحو ٥١٠ ملايين كيلومتر مربع، منها ٢٩٪ - أى نحو ١٤٩ مليون كيلومتر مربع - يابسة، ٧١٪ - أى نحو ٣٦١ مليون كيلومتر مربع - مسطحات مائية، نصفها تقريبا - أى نحو ١٧٣,٦ مليون كيلومتر مربع - أرصفة قارية، أى أجزاء من حواف القارات مغمورة بالماء . وهذه الضخامة فى أبعاد الأرض جعلتها تبدو مستوية بالنسبة إلى نظر الإنسان وإمكانات حسه .

وكل من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الاستواء، حيث إن كلاً منهما يتعرج فى تضاريس متباينة ؛ ويقدر ارتفاع أعلى قمة على سطح اليابسة (وهى قمة إفرست) بأقل قليلاً من تسعة كيلومترات (٨,٨٤٨ م)، ويقدر منسوب أخفض نقطة على سطح اليابسة - وهى حوض البحر الميت - بنحو أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وقاع البحر الميت الذى تصل أعمق أجزائه إلى نحو ثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر يعتبر جزءًا من اليابسة لأنه بحر مغلق .

ويصل منسوب أعمق أغوار المحيطات - وهو «غور ماريانا» فى قاع المحيط الهادى بالقرب من جزر الفيليپين - إلى أكثر قليلا من الأحد عشر كيلومتراً (١١,٠٣٣كم). وبذلك يصل الفرق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية إلى أقل قليلاً من العشرين كيلومتراً (١٩,٨٨١ كم)، وبنسبة ذلك إلى نصف قطر الأرض (المقدر بنحو ٦٣٧١ كيلومتراً فى المتوسط) يتضح أن الفارق بين أعلى وأخفض نقطتين على سطح الكرة الأرضية لا يكاد يتعدى ٠,٣٪ من طول نصف قطرها .

وإذا أخذنا الفرق بين متوسط ارتفاع اليابسة - والمقدر بنحو ٨٤٠ م فوق مستوى سطح البحر - ومتوسط أعماق البحار والمحيطات - والمقدر بنحو ٣٧٢٩ م إلى ٤٥٠٠ م - ونسبنا ذلك إلى نصف قطر الأرض - المقدر بنحو ٦٣٧١ كم - كانت النسبة فى حدود ٠,٠٧٪ وهذا يمثل قمة التسوية والتمهيد والفرش لسطح الأرض، خاصة إذا علمنا أن اليابسة بدأت بسلاسل من الجبال شديدة الوعورة، ثم سخر الله -تعالى- عمليات التعرية المختلفة من التجوية والتحات إلى النقل والترسيب فى تسوية تلك السلاسل الجبلية إلى تلال قليلة الارتفاع أو متوسطة، وسهول منبسطة تشقها الأودية والمجارى المائية التى تحمل رسوبياتها إلى السهول والمنخفضات كما تحملها إلى البحار والمحيطات، مكونة دالات (جمع دلتا) عملاقة ظاهرة ومغمورة تتقدم فى البحار التى تصب فيها، وهنا تنتهى عمليات تعرية سطح الأرض بوصوله إلى مستوى سطح البحر على هيئة سهل تحاتى منبسط .

وقد استمر الصراع بين العمليات الداخلية البانية لسطح الأرض، والعمليات الخارجية الهدمية التى تحاول أن تصل بسطح الأرض إلى مستوى سطح البحر فى دورات متتالية تعرف باسم «دورات شكل الأرض» (أو دورات التحات). وقد ظلت هذه الدورات تعمل على مدى ٤,٦ بليون سنة على الأقل حتى تم تمهيد سطح الأرض وبسطه، وجعله فراشًا للإنسان ولغيره من المخلوقات، وأمكن شق الفجاج والسبل فيه، وتكوين المجارى المائية، والبحيرات الداخلية، والأغوار والمنخفضات الأخرى، وسوف يظل الأمر كذلك حتى يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فى تبادل مستمر بين اليابسة والماء (القارات والمحيطات)، وبين المرتفعات

والمنخفضات، وبين دورات الصخور، وغير ذلك من عمليات الاتزان الأرضى التى سخرها ربنا - تبارك وتعالى - فى تهيئة الأرض لاستقبال الحياة، والتى لا تزال تعمل إلى قيام الساعة . وفى تلك الدورات المتبادلة بين البناء والهدم تكونت السهول الخصبة، والتربة الغنية، والركازات المختلفة من المعادن، والصخور التى تحوى فى أحشائها الكثير من خيرات الأرض التى تجمعت عبر ملايين السنين، فمعدلات تجمع الرسوبيات تتراوح بين مائة ومائتين من السنين لتجمع السنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة، بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث سنوات وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور المتكونة، **وهذا يعنى أن عمليات تسوية سطح الأرض حتى أصبحت صالحة للعمران قد استهلكت من الزمن والطاقة ما لا تستطيع البشرية مجتمعة أن تقوم بالوفاء بتكلفته، ومن هنا يَمُنُّ علينا ربنا - تبارك وتعالى - بقوله - عز من قائل - : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾**. وذلك فى مقام الاستدلال على ألوهيته ووحدانيته وطلاقة قدرته فى إبداعه لخلقه.

ثانيا : فى قوله - تعالى - : ﴿ .... وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ :

يَمُنُّ علينا ربنا - تبارك وتعالى - أنه جعل السماء من فوقنا بناء محكمًا على ضخامة أبعادها، وتعدد أجرامها، وانتشار مختلف صور المادة والطاقة فيها، وذلك بعدد من القوى التى أودعها ربنا - سبحانه وتعالى - فى كل جزئية من جزئياتها، ومن هذه القوى ما يلى :

(١) **القوى النووية الشديدة** : التى تمسك باللبنات الأولية للمادة فى داخل نوى الذرات، ولولاها ما تكونت تلك النوى، ولظل الكون مليئًا باللبنات الأولية للمادة فقط، والتى لا تعنى شيئًا.

(٢) **القوى النووية الضعيفة** : التى تمسك بالإليكترونات وتشدها إلى نوى الذرات، ولولاها ما تكونت ذرات المادة ولبقى الكون مليئًا بنوى ذرات المادة فقط .

(٣) **القوى الكهرومغناطيسية** : التى تمسك بذرات المادة فى داخل كل من جزيئاتها ومركباتها، وهى التى تؤدى إلى حدوث الإشعاع الكهرومغناطيسى على هيئة

فـوتونات الطاقـة أو مـا يعـرف باسم «الكم الضـوئى»، ولولا هذه القـوة الكهرومغناطيسية لكان الكون مليئًا بذرات العناصر السائبة، ولما كانت هناك جزيئات، ولا مركبات، ولا نور، ولا دفء، ولاستحالت الحياة.

(٤) **قـوى الجاذبيـة** : وهى القـوى التى تمسك بأطراف السـمـاء وبكل أجـرامـهـا، ومختلف تجمعاتها؛ ولولا هذا الرباط الحاكم الذى أودعه الله ـ تعالى ـ فى كل أجرام الكون ما كانت الأرض ولا كانت السماء، ولو زال هذا الرباط لانفرط عقد الكون وانهارت مكوناته، ومن هنا كانت المنَّة الإلهية بجعل السماء بناء.

ثالثا : فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ :

أى أنزل من السحاب ماء عذبًا فراتًا لأن المصدر الرئيسى للماء النقى على سطح الأرض هو ماء المطر؛ وذلك لأنه منذ أن أخرج الله ـ تعالى ـ ماء الأرض من داخلها على هيئة بخار الماء الصاعد مع ثورات البراكين، وكثفه فى نطاق المناخ من الغلاف الغازى للأرض الذى يتبرد بالارتفاع، فرده مطرًا سال على سطح الأرض، وفاض إلى منخفضاتها مكونًا البحار والمحيطات، بدأت دورة الماء حول الأرض، ويقدر ما يرتفع من الأرض إلى غلافها الغازى سنويًا بنحو (٣٨٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب) من الماء يتبخر أغلبه من أسطح البحار والمحيطات (٣٢٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب)، ويرتفع الباقى من اليابسة (٦٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب).

ويعود كل ما يتبخر من ماء الأرض إليها ثانية بمشيئة الله وإرادته لينزل منه على اليابسة (٩٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب) وعلى البحار والمحيطات (٢٨٤,٠٠٠ كيلومتر مكعب)، وفى هذه الدورة المعـجـزة تكسب اليـابسـة سنويًا (٣٦,٠٠٠ كـيلومـتـر مكعب) من ماء البحار والمحيطات ينزل عليها مطرًا يجرى ماء على سطح الأرض ويؤدى أدوارًا مهمة على اليابسة ثم يفيض إلى البحار والمحيطات مرة أخرى، وكل الماء المخزون تحت سطح الأرض ـ على كثرته ـ أصله من ماء المطر.

وفى هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض، يتحرك الماء إلى الغلاف الغازى للأرض فيتطهر مما تجمع به من أملاح وملوثات، ويعاود نزوله على الأرض ماء

طهوراً، وتمتد هذه الدورة من نحو الكيلومتر تحت مستوى سطح البحر إلى ارتفاع ١٥ كم فوق مستوى سطح البحر، فيتم بواسطتها تطهير الماء، وتلطيف الجو، وتوفير نسب متفاوتة من الرطوبة فيه، وري كل من الإنسان والحيوان والنبات، وتغذية كل من الأنهار والجداول، والتربة السطحية، وخزانات الماء تحت سطح الأرض فيعمل على زيادة كمياتها، وعلى تجديد عذوبتها، وعلى تعويض ما يفيض إلى السطح أو يضخ منها، كما يتم تفتيت الصخور، وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية، وتركيز العديد من المعادن والخامات الاقتصادية والصخور.

وكما يكون فى ماء المطر خير ورحمة، فقد يجعله ربنا - تبارك وتعالى - عقاباً وعذاباً حينما تؤدى السيول الجارفة أو الفيضانات المغرقة للأنهار والجداول إلى دمار شامل يأتى على الحرث والنسل.

والغطاء الرسوبى للأرض الذى يقدر حجمه بأكثر من ٣٦٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب يرجع الفضل فى تكوينه إلى دورة الماء حول الأرض، وما بهذا الغطاء من رسوبيات ملحية تقدر كتلتها بملايين الأطنان، ناتج عن عمليات التبخير بعد أن أذابته مياه الأمطار أصلاً من صخور اليابسة ثم حملته إلى البحار والمحيطات ليعود مرة أخرى إلى اليابسة فى دورات التبادل بين المحيطات والقارات، حينما يتحول المحيط إلى اليابسة.

رابعا: فى قوله - تعالى -: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾:

جاء ذكر إخراج الثمرات من الأرض لتمثل النعمة الرابعة من نعم الله على العباد فى هذه الآية الكريمة، وهى نعمة لا تستقيم الحياة بدونها؛ وذلك لارتباط حياة كل من الإنسان والحيوان بالنبات ومنتجاته خاصة بثمار النباتات العليا. ومن هنا كانت حكمة الله البالغة فى خلق النبات ثم الحيوان، وبعد أن اكتملت كل صور الخلق وهيئت الأرض لاستقبال المخلوق المكرم الذى خلقه الله - سبحانه وتعالى - فى أحسن تقويم، وجعله أكرم المخلوقات أجمعين، خلق الله - تبارك وتعالى - الإنسان منذ فترة لا تتعدى المائتى ألف من السنين بينما تاريخ الحياة على الأرض يرجع إلى ٣,٨ من بلايين السنين، ويقدر أقدم عمر معروف للأرض بحوالى ٤,٦ من بلايين السنين.

وقد جاء ذكر إخراج الثمرات من الأرض فى هذه الآية الكريمة فى تسلسل منطقى جميل، أشار أولاً إلى تكوين التربة بواسطة عمليات التعرية المختلفة ـ من التجوية والتحات إلى النقل والترسيب ـ التى فتتت صخور الأرض، وكونت السهول المنبسطة، والتربة الخصبة اللازمة للإنبات، وجعلت الأرض فراشًا ممهدًا لحياة كل من النبات والحيوان والإنسان . ثم أشارت إلى بناء السماء وأولها الغلاف الغازى للأرض والسحاب المسخر بينهما فى نطاق المناخ الذى خصه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالتبرد مع الارتفاع حتى يتكثف فيه بخار الماء المرتفع من الأرض فيعود إليها مطرا بإذن الله .. ولذلك أشارت الآية الكريمة إلى إنزال الماء من السماء، فأخرج الله ـ تعالى ـ به مختلف الثمرات رزقًا للعباد، وهى من نعم الله العديدة على الإنسان وعلى ما حوله من مخلوقات .

وتشمل الثمرات كل جزء يستخدمه الإنسان من النبات سواء كان هذا الجزء من جذور النبات أو سيقانه أو أوراقه أو أزهاره أو ثماره، وبذلك تقسم الثمرات إلى ثمرات حقيقية وأخرى غير حقيقية . . ومن الثمرات الحقيقية ثمرات الفاكهة، التى تمثل الثمرة فيها مبيض الزهرة بعد تمام إخصابه بحبوب اللقاح، وتكون جنين النبتة فى البذرة (أو البذور) محاطا بالعديد من الأغلفة النباتية لحمايته ولتغذية الجنين فى وقت إنباته، وقد تمثل الثمرة بالبذرة (أو البذور) فى حالات الحبوب والبقول بأنواعها المختلفة . ووظيفة الثمار الأولى هى المحافظة على جنين النبتة فى داخل البذرة (أو البذور) ومده بالغذاء فى وقت الإنبات، ومساعدة هذا النوع من النبات على استمرارية الوجود على الأرض إلى أن يشاء الله، وعلى انتشاره الأفقى فى الأرض بانتشار بذوره، ولولا ذلك لانقرضت أنواع النباتات العليا . ووظيفة الثمار الثانية هى غذاء كل من الإنسان والحيوان .

وتقسم الثمار الحقيقية إلى ثمار بسيطة، ومجمعة، ومركبة، وتقسم الثمار البسيطة إلى جافة، وغضة، أما الثمار المجمعة المركبة فأغلبها غض ؛ والثمار غير الحقيقية هى الثمار التى تدخل فى تركيبها أجزاء أخرى غير المبيض، وهذه أيضا إما أن تكون بسيطة كالتفاح، أو مجمعة كالشليك، أو مركبة من مثل كل من التين والتوت، والفراولة أو قد تكون جزءًا من النبات غير النورة والزهرة .

ومن ثمرات النبات ما يمثل غذاء رئيسيًا للإنسان، ولما يستخدمه من مختلف أنواع الحيوان، ومنها ما يعتبر مصدرًا لكثير من الزيوت والدهون والأصباغ والألوان التى يستخدمها الإنسان فى طعامه وصناعاته المختلفة، ومنها ما يستخدم مصدرًا للعديد من أنواع الدواء التى يحتاجها كل من الإنسان والحيوان فى تطبيب أمراضه، وعلاج أوجاعه، ومن هنا كان إخراج الثمرات من الأرض من رزق الله الذى يمتن به على عباده، ومن الشهادات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق وتنوعه.

خامسا: فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

بعد استعراض جانب من نعم الله على العباد جاء الأمر الإلهى بتحريم الإشراك بالله أندادا لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لنفسها من أمر الله شيئًا، وكل عاقل يدرك أن الله ـ تعالى ـ وحده هو الخالق الرازق ذو القوة المتين، وأن الخلق جميعًا عبيده، ولذلك عندما سئل رسول الله ﷺ: أى الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»[1] وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «**أتدرى ما حق الله على عباده؟**» ثم أجاب ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ: بقوله الشريف: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**»[2].

هذه الحقائق التى ساقتها الآية الكريمة لتنتهى إلى الأمر بتوحيد الله الخلاق الرزاق العليم، وإلى النهى عن الشرك الذى وصفه ابن عباس بقوله: «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل . . . .».

هذه الحقائق الكونية لم يصل إليها علم الإنسان إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وورودها فى كتاب الله المنزل من قبل أربعة عشر قرنًا لما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه، كما يشهد بصدق ما جاء به من الدعوة إلى التوحيد الخالص لله، وعبادته ـ تعالى ـ وحده بما أمر، (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد)، فأشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البخارى فى «صحيحة» (٤٤٧٧)، ومسلم فى «صحيحه» (١٤١/ ٨٦).

(٢) البخارى فى «صحيحه» (٥٩٦٧)، ومسلم فى «صحيحه» (٤٨/ ٣٠).

obeikandl.com

الخاتمة

جاءت لفظة الأرض فى القرآن الكريم فى أربعمائة وواحد وستين (٤٦١) موضعًا لتصف الكوكب الذى نحيا عليه فى مجمله، أو لتصف كتل القارات والجزر التى تعرف فى مجموعها باسم اليابسة، أو لتشير إلي قطاع التربة الذى يغطى صخور اليابسة، والمعنى يحدده السياق القرآنى.

وأرضنا عبارة عن شبه كرة من الصخر يقدر حجمها بحوالى المليون من الكيلو مترات المكعبة، ومتوسط كثافتها بنحو ٥,٥٢ جرام للسنتيمتر المكعب، وعلى ذلك فإن كتلتها تقدر بحوالى الستة آلاف مليون مليون مليون طن (٦×١٠^{٢١} طنًا).

والأرض هى ثالثة كواكب المجموعة الشمسية بعدًا عن الشمس، وتفصلها عنها مسافة يقدر متوسط طولها بحوالى المائة وخمسين مليون كيلو متر. وتدور الأرض حول نفسها بسرعة مقدارها فى زمننا الحالى حوالي الثلاثين كيلو متر فى الدقيقة (٢٧,٨ كيلو متر/ دقيقة) عند خط الاستواء؛ لتتم دورتها هذه فى يوم مقداره ٢٤ ساعة تقريبًا، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول التى تنتج بسبب ميل محور دوران الأرض على دائرة البروج بزاوية مقدارها ست وستون درجة ونصف الدرجة تقريبًا.

وتجرى الأرض حول الشمس فى فلك بيضاوى (إهليلجى) قليل الاستطالة بسرعة تقدر بحوالى ثلاثين كيلو متر فى الثانية (٢٩,٦ كيلو متر/ ثانية)؛ لتتم دورتها هذه فى سنة شمسية مقدارها ٣٦٥,٢٥ يوم تقريبًا من أيامنا الحالية، وتتقاسم السنة الشمسية فصول أربعة هى: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

والأرض جزء من الكون الذى يقدر عمره بنحو الأربعة عشر بليونًا من السنين (١٤×١٠^{٩} سنة)، وإن كان أقدم عمر معروف للأرض يقدر بحوالى الخمسة بلايين

من السنين فقط (٦ , ٤ بليون سنة)، والسبب فى ذلك أن صخور الأرض تدخل فى دورات من الانصهار الكامل وإعادة التبلور مما يطمس بعض معالم قدم الأرض، وإلا فإن المشاهدات الكونية، والمنطق السوى يدعمان الحقيقة القرآنية التى تقرر أن السماء والأرض قد خلقتا فى وقت واحد، وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله (عز من قائل):

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

ويقدر عمر أقدم أثر للحياة على الأرض بنحو ٣.٨ بليون سنة، بينما لا يتعدى أقدم أثر للإنسان على سطح الأرض المائة ألف سنة. ومعنى ذلك أن الأرض قد استغرقت أكثر من ثمانمائة مليون سنة من أجل إعدادها لاستقبال الحياة، وأربعة آلاف وستمائة مليون سنة على أقل تقدير لاستقبال ذلك المخلوق المكرم المعروف باسم الإنسان. ومن المسلم به أن ربنا (تبارك وتعالى) قادر على أن يقول للشيء (كن فيكون)، ولكن ربما كان من مبررات الخلق على هذه الآماد الطويلة هو إتاحة الفرصة للإنسان - بإمكاناته المحدودة - للتعرف على سنن الله في الخلق، وتوظيفها في عمارة الحياة على الأرض، وربما كان من مبررات ذلك أيضًا التأكيد على أن كلاً من الزمان والمكان - وإن كان من الحدود التى تحد الإنسان وغيره من المخلوقات فى هذا الكون الحادث - إلا أنه يبقى من خلق الله تعالى، والمخلوق لا يحد خالقه أبدًا، وعلى ذلك فإن كلاّ من الماضى والحاضر والمستقبل هو حاضر عند الله - سبحانه وتعالى - الذى هو فوق كلّ من المكان والزمان، والمادة والطاقة، وفوق الكون كله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

من أجل ذلك أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب الهام من تاريخ الأرض ألا وهو «مراحل تهيئة الأرض لاستقبال الحياة» وهى مما يشهد لله الخالق - سبحانه

وتعالى - بطلاقة القدرة فى إبداعه للخلق، وإحكام صنعه، ووضع ضوابطه وقوانينه وسننه.

وانطلاقًا من ذلك كان هذا الكتاب الذى يعالج بعض آيات القرآن الكريم التى تعرض لقضية تهيئة الأرض لاستقبال الحياة، التى كان أولها الحياة النباتية، وقد تناولت الأبواب الثلاثة الأولى من الكتاب القضايا العامة التالية:

١ - قضية إعجاز القرآن الكريم.

٢ - موقف المفسرين من الآيات الكونية فى كتاب الله.

٣ - الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم.

وتناولت الأبواب الباقية خمس آيات قرآنية كريمة اهتمت كل آية منها بمرحلة أو أكثر من مراحل إعداد الأرض لاستقبال الحياة، وهى فى مجموعها تشكل منظومة معجزة من آيات الكتاب العزيز تشرح فترة من فترات تاريخ الأرض القديم لم تكن معروفة لأحد من الخلق فى زمن الوحى ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها فى كتاب الله الذى أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذى قطعه على ذاته العلية على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد، وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، وحفظه فى نفس لغة وحيه (اللغة العربية): كلمة كلمة، وحرفًا حرفا، وآية آية، وسورة سورة، حتى يبقى حجة على جميع الخلق إلي قيام الساعة شاهدًا لله تعالى بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومؤيدًا لنبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبى الأمين ﷺ ومؤكدًا على أنه كان موصولاً بالوحى، ومؤيدًا من قبل رب العالمين - سبحانه وتعالى.

والآيات القرآنية الخمس التى تناولها هذا الكتاب هى كما يلى:

١ - ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

٢ - ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٣ ـ ﴿ ... وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠].

٤ ـ ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٥ ـ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢].

ومن الحقائق العلمية التى سبقت بها هذه الآيات القرآنية الكريمة الخمس ما يلى:

١ ـ إن الكون الذى نحيا فيه مخلوق، خلقه الله ـ تعالى ـ بعلمه وقدرته وحكمته، وكل مخلوق له بداية تحاول العلوم الكونية تقديرها، ووصلت فى ذلك إل قرابة الأربعة عشر بليونًا من السنين. وكل ما له بداية لابد وأن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا رب العالمين؛ لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تمامًا، وهى لا تأتى إلا بغتة بأمر من الله ـ تعالى ـ ﴿كن فيكون﴾، وإن كان ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قد ترك لنا فى صخور الأرض وفى صفحة السماء عددًا من الشواهد الحسية التى تشير إلي حتمية وقوع الآخرة دون إمكانية لتحديد موعدها؛ لأن سننها مغايرة لسنن الدنيا تمامًا كما سبق وأن أشرنا فـ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

٢ ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق الماء قبل خلق الحياة، وخلق من الماء كل شىء حى، وخلق الحياة فى الماء قبل خلقها على اليابسة بأكثر من ثلاثة آلاف وأربعمائة مليون سنة ($٤,٣ \times ١٠^{٩}$ سنة)، وجعل جميع العمليات الحيوية لا تتم في غيبة الماء، ولذلك قال عز من قائل: ﴿ ...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾.

٣ ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق كلاّ من الأرض والسماء فى يومين (أى على مرحلتين متتاليتين)، وألقى فى الأرض رواسى من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام (أى أربع مراحل متتالية.

٤ ـ إن الله ـ تعالى ـ خلق كل شىء ـ من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان فى زوجية واضحة حتى يبقى (جل جلاله) متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ولذلك قال ـعز من قائل ـ: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

٥ ـ إن الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ سخر كلاً من عمليات التجوية، والتحات، والتعرية، والنقل، والترسيب لتسوية سطح الأرض، وشق الفجاج والسبل والمجارى المائية فيها، وتكوين كلّ من السهول المنبسطة، والتربة الخصبة التى تحمل المركبات العضوية وغير العضوية، والرطوبة، والبذور النباتية المختلفة والتى بدونها ما أنبتت الأرض.

وفى أثناء هذه العمليات يتكون كلٌ من الرسوبيات، والصخور الرسوبية بمخزونها من الثروات المائية، والنفطية، والمعدنية، ويتمايز العديد من ركائز المعادن، وتصبح الأرض صالحة للعمران بعد أن جعلها الله ـ تعالى ـ فراشًا سهلاً للإنسان ولغيره من المخلوقات.

وسوف تظل هذه العمليات الأرضية التى سخرها ربنا (تبارك وتعالى) إلى ما شاء الله؛ لأنها لو توقفت لتوقفت الحياة، على الرغم من كونها عمليات بطيئة فالسنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة تقدر له فترة تتراوح بين المائة والمائتين من السنين كى يتجمع، وما بين ثلاث سنوات وثلاثمائة سنة كى يزال من مكانه بواسطة عمليات التعرية مما يؤكد أن عمليات تسوية سطح الأرض قد استهلكت من الوقت والطاقة ما لا قبل للإنسان به.

كذلك سخر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من القوى غير المرئية ما يمسك بالسماء وأجرامها وغازاتها، ومختلف صور المادة والطاقة فيها، حتى صارت بناءً محكمًا من الذرة إلى المجرة.

وأحكم الخالق (سبحانه وتعالى) دورة الماء حول الأرض، ولولاها لفسد ماء الأرض، ومن هنا كانت الإشارة القرآنية إلى إنزال الماء من السماء تأكيدًا لنعمة من نعم الله الكبرى، والتى بدونها ما كانت الحياة، وأتبعت الإشارة إلى نعمة إنزال الماء من السماء بنعمة إخراج الثمرات، وذلك لارتباط حياة كلٍّ من الإنسان والحيوان بالنبات وثماره، وارتباط مختلف صور الحياة بالماء.

ومن هنا كانت حكمة الله البالغة فى خلق النبات أولاً، ثم خلق الحيوان حتى هيئت الأرض لاستقبال خلق الإنسان ذلك المخلوق الذى كرمه الله ـ تعالى ـ بجعله

أكرم المخلوقات أجمعين إذا استقام على طريق الله والتزم به، وفهم حقيقة رسالته فى هذه الحياة.

وهذه القضايا الخمس تمت مناقشتها في كتابنا هذا، وسوف تتبع ـ إن شاء الله تعالى ـ بالعديد من غيرها من قضايا إعداد الأرض لاستقبال الحياة من مثل القضايا التالية:

١ ـ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل فى تربة الأرض القدرة على تشرب الماء (التميؤ) مما يؤدى إلى زيادة حجمها وانتفاخها وانتفاضها إلى أعلى بمجرد نزول الماء عليها، ويساعد على ذلك ما يقوم به الماء من طرد للغازات الحبيسة بين رقائق المعادن الصلصالية، ومن تحويل لحبيبات الصلصال الدقيقة إلى الحالة الغروية وهى حالة متحركة، تتدافع فيها الجسيمات المادية الدقيقة بأقدار غير متساوية فى جميع الاتجاهات، وما يتم أثناء ذلك من عمليات إحلال كيميائية، ومن عمليات تنافر بين الشحنات الكهربية المتشابهة فى كل من جزىء الماء المزدوج القطبية وأيونات العناصر المختلفة الموجودة فى التربة أو على أسطح الراقات الصلصالية. ويعين على ذلك أيضًا إنبات البذور وانتعاش غيرها من صور الحياة وبقاياها بمجرد وصول الماء إليها فتحدث زيادة كبيرة فى حجمها وفى نشاطها الحيوى مما يؤدى إلى ارتفاع التربة إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقًا سهلاً لخروج السويقات المندفعة من داخل البذور النابتة إلى ما فوق سطح الأرض. ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]

٢ ـ إن الماء المخزون فى بعض الصخور المسامية والمنفذة المكونة لقشرة الأرض مستمد أصلاً من ماء المطر وهى حقيقة لم تعرف فى الغرب إلا فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٧م).

وهذا الماء يخرجه ربنا (تبارك وتعالى) بقدرته على هيئة ينابيع الأرض فيخرج به الزروع المختلفة الأنواع والألوان من تربة واحدة، وتسقى بماء واحد مما يشير إلى بديع صنع الله بما وهبه لكل نبتة من القدرة على اختيار ما يناسبها من عناصر الأرض ومركباتها حتى تأخذ شكلها وتعطى ثمارها التى تميزها عن غيرها.

هذا إذا كان المقصود بألوان الزروع والنباتات هو أنواعها وأصنافها، أما إذا كان المقصود هو الألوان التى تتراءى لعين الإنسان فسببها عدد من الأصباغ النباتية الأساسية التى وهبها الله - تعالى - لكل نبات، والتى تطغى عليها الأصباغ الخضراء فى بدء حياة النبات لحاجة النبات إليها فى عملية التمثيل الضوئى، ولكن عند تمام نضج الثمار تتوقف حاجة النبات إلى الغذاء، وبالتالى يتوقف إنتاجه للأصباغ الخضراء، ويبدأ ما تبقى منها فى التحول إلى عدد من المركبات الكيميائية التى تفتقر إلى الخضرة وهنا تبدأ الأصباغ الصفراء فى الظهور التدريجى حتى تسود، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - ﴿ ... **ثُمَّ يهيجُ فتراهُ مُصْفَرًّا** ﴾. وفى حالة النباتات الحولية يفقد النبات ما به من ماء بالتدريج حتى يجف بالكامل، وتبقى مواده الصلبة، ويبدأ فى التحلل حتى يتحول إلى حطام، يصفه القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر: ٢١].

٣ - إن إنزال الماء من السحاب يتم بعمليات معقدة للغاية يتدخل فيها من العوامل ما لا تستطيعه قدرة الإنسان من مثل تصريف الرياح، وتبخير الماء، وتكون السحب، وتلقيحها بنوى التكثف، وتجمع قطيرات الماء فيها بالتدريج إلى الكتل التى يعجز الهواء عن حملها فتسقط مطرًا أو بردًا أو ثلجًا بأمر الله - تعالى - حيث يشاء وبالقدر الذى يشاء. وبنزول الماء إلى الأرض تبدأ له دورة منضبطه حولها تتم بقدر من الإحكام والثبات المبهر.

ويعتبر ماء المطر والثلوج المتساقطة معه أنقى حالات الماء الطبيعى حيث لا تزيد ملوحته عن عشرين جزءًا فى المليون، ولكن ما إن ينزل هذا الماء على الأرض ويجرى على سطحها حتى يبدأ فى إذابة العديد من أملاحه القابلة للذوبان فيه، ثم يتدفق فى المجارى المائية المختلفة حتى يفيض إلى عدد من البحيرات أو البحار والمحيطات بعد أن يتسرب جزء منه إلى المخزون المائى تحت سطح الأرض فيجدد عذوبته، ولولا دورة الماء هذه ما وجد الإنسان قطرة ماء صالحة للشرب، وذلك لأن غالبية ماء الأرض (٢٢ , ٩٧٪ من مجموع ماء الأرض) هو ماء البحار والمحيطات

وهو ماء مالح لا يصلح للشرب، حيث تتراوح ملوحته بين (٣٢٠٠٠) جزء فى المليون، (٤٢,٠٠٠) جزء فى المليون ويصل إلى (٢٨٥,٠٠٠) جزء فى المليون فى بحر مغلق كالبحر الميت، وماء الشرب لا تتعدى ملوحته (١,٠٠٠) جزء فى المليون.

ويمثل الغطاء الجليدى لكلٍّ من قطبى الأرض وقمم الجبال حوالى (٢,١٥٪) من مجموع ماء الأرض، بينما يمثل المخزون المائى فى صخور قشرة الأرض حوالى (٠,٦١٣٪) والباقى وهو حوالى (٠,٠١٧٪) يمثل مجموع الماء الجارى فى الأنهار والجداول، ومياه البحيرات الداخلية ورطوبة كل من التربة والجو، ولذلك يمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾ [النحل: ١٠].

ومن الثابت علميًا أن النباتات الأرضية يرجع تاريخها إلى (٤٤٠) مليون سنة مضت، وأنها سابقة فى وجودها للحيوانات الأرضية، وذلك لحاجة تلك الحيوانات إلى النباتات فى غذائها وفى إمداد الغلاف الغازى للأرض بالأكسچين اللازم لتنفسها، ومن هنا كان اعتماد كلٍّ من الإنسان والحيوان على النبات فى غذائه وفى تنفسه، وكانت الحكمة الإلهية البالغة فى ترتيب ذلك وفى الإشارة إليه بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿... **لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾ [النحل: ١٠].

٤ - التأكيد على أن جميع ما فى السماوات السبع، وما فى الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى هو ملك خالص لله - تعالى -، وما فى السماوات يشمل الملائكة وأجرام السماء الدنيا ومختلف صور المادة والطاقة فيها وما لا نعلمه فى السماوات العلى، والبينيه الفاصلة بين الأرض والسماوات تؤكد مركزية الأرض بالنسبة للكون؛ و(ما فى الأرض) يشمل الإنسان، والحيوان، والنبات، وجميع الخيرات والثروات الأرضية المعروفة وغير المعروفة من مختلف صور المادة والطاقة؛ (وما تحت الثرى) تعبير يشير إلى ازدهار الحياة فى تربة الأرض، وكل ذلك من نعم الله على العباد، ومن الحقائق التى لم تكن معروفة فى زمن الوحى، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ**﴾ [طه: ٦].

وآيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة عديدة فى القرآن الكريم، اخترنا منها هنا تسع آيات فقط تتنوع فيها مراحل التهيئة، ويتضح فيها عدد من الحقائق العلمية التى سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها جميع المعارف البشرية بأكثر من عشرة قرون.

وسوف نتبع هذه الآيات الخمس بغيرها ـ إن شاء الله تعالى.

والسبق القرآنى بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون التى لم تستطع العلوم المكتسبة الوصول إليها إلا بعد قرون متطاولة من بعد زمن الوحى، وبمجاهدات استغرقت آلاف العلماء لمئات من السنين حتى تمكنت من إثباتها هو ما يعرف باسم «**الإعجاز العلمى للقرآن الكريم**»، وهو إعجاز لأن التاريخ يثبت أنه لم يكن ممكنًا لأحد من الخلق إدراك تلك الحقائق فى زمن الوحى، ولا لقرون عديدة من بعده.

أما توظيف المعارف المكتسبة فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله فيعرف باسم «**التفسير العلمى للقرآن الكريم**». ولابد من الحرص على توظيف الحقائق العلمية الثابتة فى الحالين من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية الكريمة وإثبات السبق لها، ولكن لما كان العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة فى كل أمر من أمور الكون، فإنى لا أرى حرجًا من توظيف النظرية العلمية السائدة والمقبولة فى تفسير الآية القرآنية الكريمة التى تعرض لأمر من أمور الكون لم يحسمه العلم المكتسب بعد، وذلك لأن التفسير يبقى محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، إن أصاب فيه المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول على النية.

أما الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فلا يجوز أن يوظف فيه إلا كل قطعى ثابت من الحقائق العلمية التى حسمها العلم، وذلك لأن الإعجاز هو موقف من مواقف التحدى، والمتحدى لابد وأن يكون واقفًا على أرضية صلبة خاصة إذا كان يتحدى بكلام الله ـ تعالى.

ولهذه القاعدة الذهبية استثناء واحد فى حالة الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عن الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان، وعن الإفناء والبعث؛ لأن هذه من القضايا التى لا تخضع لإدراك الإنسان المباشر، ومن ثم لا تستطيع العلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها مرحلة التنظير، وتتعدد النظريات

بتعدد خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله - تعالى - فى آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوى صحيح يمكن توظيفه فى الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود مثل هذه الإشارات القرآنية الكريمة أو النبوية الشريفة إليها. ونكون فى هذه الحالة قد انتصرنا بالقرآن الكريم أو بالحديث النبوى الشريف للعلم وليس العكس.

كذلك يمكن بإمعان النظر فى كتاب الله أو فى أحاديث رسول الله ﷺ أن يتوصل المسلمون إلى عدد من الحقائق العلمية فى قضايا لا تزال غامضة أمام العلماء، وما أكثر أمثال تلك القضايا.

والإشارات الكونية فى كتاب الله تتعدى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، والاهتمام بدراسة هذه الآيات من قبل أعداد من المتخصصين - كل فى حقل تخصصه - لشرح دلالاتها فى ضوء الحقائق العلمية المتاحة، ولإبراز جوانب الإعجاز العلمى فيها يعتبر من أنجع وسائل الدعوة إلى دين الله فى زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه، تثبيتًا للمؤمنين على إيمانهم، ودعوة للكفار والمشركين إلى الهداية الربانية بلغة العلم الذى لم يعودوا يرتضون غيره. ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية للإنسان فى القضايا التى لا يستطيع وضع ضوابط صحيحة لنفسه فيها من مثل قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات وهى ركائز الدين، وذلك لأن العقيدة قائمة على عدد من الغيبيات المطلقة، والعبادات قائمة على عدد من الأوامر الربانية الخالصة، والأخلاق والمعاملات من ضوابط السلوك، والتاريخ يثبت أن الإنسان كان عاجزًا دومًا عن وضع ضوابط صحيحة لسلوكه.

ومع تسليمنا كذلك بأن الإشارات الكونية فى كتاب الله - تعالى - جاءت فى مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وللشهادة على أن الخالق المبدع قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة بعثه، وكانت قضية البعث هى حجة الكافرين والمشركين والمتشككين عبر التاريخ.

وأن هذه الآيات الكونية جاءت أيضًا شاهدة على وحدانية الخالق - سبحانه وتعالى - المنزه عن جميع صفات خلقه، والآيات تؤكد أن جميع الخلق موجود فى زوجية واضحة، حتى يبقى ربنا متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

ومع تسليمنا بكل ذلك فإننا نؤمن بأن هذه الآيات الكونية فى كتاب الله تبقى خطابًا لأهل عصرنا، عصر التقدم العلمى والتقنى الذى نعيشه، وغالبية أهله قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، وأصبحوا لا يقبلون غير الحجة العلمية الثابتة. وهذه الآيات القرآنية الكونية الكريمة بما لها من دقة التعبير، والشمول، والإحاطة بالحقائق العلمية الواردة فيها تبقى أقوى حجة على أهل هذا العصر وعلى من سوف يأتون من بعدهم إلى قيام الساعة مادامت البشرية محتفظة بزخمها العلمى، وذلك لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية الأساسية فى كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، غير الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده فى نفس لغة وحيه لهذا المدى الطويل من السنين، وإلى قيام الساعة - إن شاء الله - دون أن يضاف إليه حرف واحد أو أن ينتقص منه حرف واحد. لأنه إذا ثبت لأهل العلم دقة الإشارات العلمية فى كتاب الله ثبت لهم كل ما جاء به من أمور العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، ومن أخبار الأمم السابقة، والتنبؤات المستقبلية، وغير ذلك من أمور الغيب.

وإذا استطعنا إقامة الحجة على أهل عصرنا - باللغة التى يفهمونها - أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن النبى والرسول الخاتم الذى تلقاه كان موصولاً بالوحى، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض استطعنا تحييد هذا الكم الهائل من الكراهية الشديدة التى تمكن أعداء الله من غلاة الصهاينة وغلاة الصليبيين، وغلاة غيرهم من مختلف ضروب الكفار والمشركين من غرسها فى قلوب أهل الأرض ضد كل من الإسلام والمسلمين. وربما استطعنا كسب نفر من الناس إلى قبول الإسلام العظيم دينًا، وهو واجب من واجبات المسلمين، لا حبًا فى الهيمنة على الخلق، واستعبادهم، وإفسادهم، واستنزاف ثروات بلادهم، كما فعل المستعمرون القدامى والجدد باسم الصليب، أو الصليب المعقوف، أو نجمة داود، ولكن انطلاقًا من إيماننا بالأخوة الإنسانية التى وصفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله - عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: ١].

وأكد على هذه الأخوة الإنسانية خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقوله الشريف: «**الناس بنو آدم،وخلق الله آدم من التراب**»[1].

وإنقاذ فرد واحد من بنى آدم من الخلود فى النار يعتبر من أعظم الإنجازات التى يمكن أن يحققها المسلم فى حياته انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «**لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها، أو مما طلعت عليه الشمس، أو من حمر النعم**»[2].

وقوله ﷺ: «**بلغوا عنى ولو آية، فرب مبلغ أوعى من سامع**»[3].

وفى زمن الفتن الذى نعيشه اليوم، وزمن التحدى السافر للإسلام والتعدى الجائر على المسلمين أجدنا فى أمس الحاجة إلى إبراز جوانب الإعجاز العلمى فى كتاب الله، وفى سنة رسوله ﷺ دفاعًا عن هذا الدين الذى لا يرتضى ربنا من عباده دينا سواه، ودفاعًا عن أمة خاتم الأنبياء والمرسلين الذى ليس من بعده من نبى ولا من رسول، وذودًا عن حياض أمة الإسلام، ودماء أبنائها، وأعراضها، ومقدساتها لأن عوالم الكفر والشرك والإلحاد من حولنا لا تزال تنكر القرآن الكريم، وتنكر نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، إن لم تتنكر لرب العالمين، وتكفر بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار، وتتنكر لحقيقة الأخوة الإنسانية.

وفى زمن تفجر المعرفة العلمية الذى نعيشه لا نجد لغة تصلح لخطاب هؤلاء الضالين أنسب من لغة العلم، وذلك لأن العقائد الدينية، والقيم الأخلاقية، والضوابط السلوكية لم تعد تحرك فى قلوب هؤلاء الضالين ساكنًا، وقد حرفوا أديانهم إن كان قد بقى عندهم دين، وشوهوا جلال الربوبية فى معتقداتهم إن بقى لهم اعتقاد فى إله، وانحطوا فى سلوكياتهم إلى ما دون الحيوانية بكثير من

---

(١) [صحيح] الترمذى فى «التفسير» (٤٩)، وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» (٢٦٠٨ ـ ٣٥٠١).

(٢) [صحيح] البخارى (٤/ ٥٨)، ومسلم (٣٤/ ٢٤٠٦).

(٣) [صحيح] البخارى (٤/ ٢٠٧)، والترمذى (٢٦٦٩).

الدرجات، وتجبروا على الخلق بما لديهم من وسائل الغلبة المادية فى وقت انحسر فيه المسلمون، وتشتتوا، وتشرذموا، وانقسموا على أنفسهم فتخلفوا علميًا وتقنيًا وفى كل منحى من مناحى الحياة المادية، وبقى الخطر الغربى يتهددهم ويتهدد أهل الأرض أجمعين بغلبته العلمية والتقنية والمادية وانحساره الدينى والأخلاقى والسلوكى، ولم يبق لنا وللعالم كله من خلاص إلا بالعودة إلى دين الله وسنة رسوله ﷺ، والقيام بواجب التبليغ بدين الله، ومن أيسر وسائله إثبات الإعجاز العلمى للقرآن الكريم ولسنة خاتم الأنبياء والمرسلين، وذلك بتشجيع البحوث العلمية فى هذا المجال على مختلف المستويات، ووضع المناهج والمقررات المناسبة لتدريسه لمختلف المراحل التعليمية، وتحديد الضوابط اللازمة للتعامل مع هذه القضية، والتنسيق بين الأفراد، والجمعيات، والهيئات، والمنظمات المهتمة بها، وإصدار الدوريات والمؤلفات المفصلة لمختلف قضايا الإعجاز باللغات العربية والأجنبية وعقد المؤتمرات المحلية والعالمية من أجل التعريف بهذه القضية، وانطلاقًا من ذلك كله كان هذا الكتاب الذى أسأل الله - تعالى - أن ينفع به آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

obeikandl.com

ثبت بالمراجع

أولاً: القرآن الكريم وعلومه:

١ - **الألوسى**: أبو الفضل شهاب الدين محمود شكرى (ت ١٢٧٠ هـ): «روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى» - إدارة الطباعة المنيرية -القاهرة (بدون تاريخ)، دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م)، دار إحياء التراث العربى/ الحلبى/ مصر (ط ٤) ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٢ - **ابن أبى الإصبع، العدوانى المصرى**: «بديع القرآن» - القاهرة (١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧م).

٣ - **ابن حزم الأندلسى، على بن أحمد بن حزم الظاهرى**: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى، المطابع الأميرية - القاهرة (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

٤ - **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد**: «المقدمة» - القاهرة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)؛ دار الشعب - القاهرة بتحقيق د. على عبد الواحد وافى (بدون تاريخ).

٥ - «ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر» ـ بيروت (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) - (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

٦ - **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ)**: «فضائل القرآن» ـ دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٧ - **ابن عاشور، محمد الطاهر**: تفسير «التحرير والتنوير»، الدار التونسية للنشر ـ ونس (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٨ - **ابن العربى، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م).

٩ - **ابن عطية الأندلسى، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٦هـ)**: «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - الدوحة) (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)؛ دار الكتب العلمية (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

١٠ - **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ)**:«تفسير القرآن العظيم» (٤ أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة - القاهرة (ط ٢)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

١١ - «فضائل القرآن» - مطبعة المنار - (القاهرة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

١٢ - **أبو حيان الأندلسى، أبو عبد الله محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» - مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، دار الفكر - بيروت (ط ٢) (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

١٣ - **إمام، محمد سعيد**: «حديث الإسلام عن الأشجار» المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر - (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

١٤ - **أبو السعود، محمد بن محمد العمارى**: تفسير أبى السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية - بولاق - القاهرة - (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م).

١٥ - **الباقلانى، القاضى أبو بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)**: «إعجاز القرآن» - تحقيق أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)؛ ومصطفى الحلبى (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وعالم الكتب - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١٦ - **البغوى، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوى المسمى «معالم التنزيل» - تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة - بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

١٧ - **البقاعى، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر فى تناسب الآى والسور»، دار الكتاب الإسلامى - القاهرة (ط ٢)، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، دار الكتب العلمية- بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

١٨ - بنت **الشاطئ (عائشة عبد الرحمن)**: «الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية، وبيانية»، دار المعارف (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

١٩ - «التفسير البيانى للقرآن الكريم» (فى جزأين) - دار المعارف - القاهرة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

٢٠ - **البيضاوى، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازى**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية - القاهرة (١٣٠٥هـ/ ١٩١٠م).

٢١ - **البيومى، محمد رجب**: «البيان القرآنى» - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

٢٢ - **التجيبى، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبرى» - دار الفجر الإسلامى - دمشق (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٢٣ - **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجى - القاهرة؛ دار الرفاعى بالرياض (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٢٤ - **الجرجانى، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجى - القاهرة (ط ٢)، مطبعة المنار - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)، أعيدت طباعته بالاتفاق بين مكتبتى الخانجى والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٥ - «الرسالة الشافية فى إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة

(١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل فى سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٢٦ - **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية - بيروت - الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م). منشورات المكتب الإسلامى - بيروت (الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م).

٢٧ - **جوهرى، طنطاوى (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)**: «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) - (فى ٢٦ جزءًا، ١٣ مجلدًا) مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر - (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م) (الطبعة الثانية: شوال ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).

٢٨ - **حوى، سعيد**: «الأساس فى التفسير» - دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٢٩ - **الخازن، علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الصوفى**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل فى معانى التنزيل» وبهامشه تفسير البغوى (فى ٧ أجزاء)، المطبعة الأميرية - القاهرة (١٢٣١/ ١٢٣٢هـ) الموافق (١٨١٥/ ١٨١٦م). أعاد طباعته كلٌّ من دار المعرفة، ودار الفكر - بيروت.

٣٠ - **الخطابى، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٣٨٨هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل فى سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٣١ - **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة فى القرآن»، القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).

٣٢ - **الذهبى، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة - القاهرة (الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

٣٣ - **الرازى، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)**: تفسير الرازى أو التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (فى ٨ مجلدات)، المطبعة البهية -

القاهرة (١٣٠٧هـ/ ١٣٢١هـ) الموافق (١٨٨٩م/ ١٩٠٣م)، أعادت طباعته كلٌّ من دار الكتب العلمية - طهران (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ودار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣٤ - **الرازى، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر - (الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

٣٥ - **الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت٥٠٣هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» - تحقيق: نديم مرعشلى، دار الكتاب العربى (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

٣٦ - **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» - دار المنار/ القاهرة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)، دار المعرفة - بيروت (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٣٧ - **الرمانى، أبو الحسن على بن عيسى (ت٣٨٦هـ)**: «النكت فى إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

٣٨ - **الزرقانى، محمد بن عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ)**: «مناهل العرفان فى علوم القرآن» (فى جزأين) مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م).

٣٩ - **الزركشى، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)**: «البرهان فى علوم القرآن» - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (فى أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية - الحلبى - القاهرة، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة - بيروت (١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م).

٤٠ - **الزمخشرى، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» - (فى أربعة أجزاء) - مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - مصر (١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م)، (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م).

٤١ - **السعدى، عبد الرحمن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

٤٢ - **سعيد، عبد الستار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعى»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٤٣ - **السيوطى، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين - أبو بكر - الأسيوطى أو السيوطى (ت ٩١١هـ)**: «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (فى ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - مصر (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م)، دار الفكر - بيروت (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٤٤ - «الإتقان فى علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، مصطفى الحلبى (الطبعة الرابعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، مكتبة دار التراث - القاهرة (الطبعة الخامسة: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٤٥ - **شحاته، عبد الله**: «آيات الله فى الكون، تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

٤٦ - **الشنقيطى، محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى**: «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدنى بالرياض (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

٤٧ - **الشوكانى، محمد بن على بن محمد (ت ١٢٥٠هـ)**: «فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابى الحلبى - مصر (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م)، (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، دار الفكر - بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٤٨ - **الصابونى، محمد بن على**: «مختصر تفسير ابن كثير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٤٩ - «صفوة التفاسير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٥٠ - **الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)**: تفسير الطبرى المعنون «جامع البيان عن تأويل آى القرآن»، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية - بولاق - القاهرة (فى ١٥ مجلداً)، ودار المعارف - القاهرة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٥١ - **عبد الباقى، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب - القاهرة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م).

٥٢ - **العك، خالد عبد الرحمن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابى - دمشق (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٥٣ - **الغزالى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالى (ت ٥٠٥هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)؛ دار المعرفة - بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

٥٤ - «جواهر القرآن»، مكتبة الجندى - القاهرة (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة - بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٥٥ - **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ)**: «معانى القرآن»، تحقيق النجاتى، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

٥٦ - **القاسمى، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقى.

٥٧ - **القرطبى، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى (ت ٦٧١هـ)**: تفسير القرطبى المسمى بـ «الجامع لأحكام القرآن» (فى ٢٠ مجلداً) دار الكتب المصرية (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)، (١٣٨٧هـ/

١٩٦٧م)؛ دار القلم بيروت (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)؛ دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٥٨ - **القطان، مناع خليل**: «مباحث فى علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

٥٩ - **قطب، سيد**: «فى ظلال القرآن» (فى ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

٦٠ - **قطب، سيد**: «التصوير الفنى فى القرآن»، مكتبة وهبة - القاهرة (١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م).

٦١ - **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامى: بيروت، دمشق (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٦٢ - **لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج.م.ع.**: «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة) (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م). المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج.م.ع. القاهرة.

٦٣ - **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعانى القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٦٤ - **النسفى، أبو البركات عبد الله بن أحمد**: تفسير النسفى المعروف باسم «الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (فى مجلدين) مطابع الحلبى - القاهرة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م).

٦٥ - **المراغى، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغى» - دار إحياء التراث العربى - بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٦٦ - **مسلم، مصطفى**: «مباحث فى التفسير الموضوعى» دار القلم - دمشق، بيروت - الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٦٧ - «مباحث فى إعجاز القرآن» - دار المنارة - جدة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

ثانيًا: الكتب العامة:

٦٨ - **بوكاى، موريس**: «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة» - دار المعارف - القاهرة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م). (Maurice Bucaille (1976): "La Bible, le Coran et la Science", Editions Seghers, 31 Rue Falguière, Paris, Cedex 15).

٦٩ - **مونسما، چون كلوڤر (مشرف على التحرير)**: «الله يتجلى فى عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندى، الناشر: مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة (The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monsma; 1958; Pubished by G. P. Putnam's Sons, New York).

obeikandl.com